

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 154 - الأربعاء 1 حزيران (يونيو) 2011

اليمن وفصول الجحيم

د. أحمد الصياد

رسوم: آمنه النصيري



الشريك الثقافي



MBI AL JABER
Foundation

المؤسسة الراعية



معالي السيدة إيرينا بوكوفا Irina Bokova، المديرية العامة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة - اليونسكو - ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber المبعوث الخاص لمنظمة اليونسكو للتسامح والديمقراطية والسلام.

إيماناً منها بأهمية نشر المعرفة وتشجيع القراءة ودعم الفن التشكيلي لمواجهة الأزمة الثقافية الخانقة في العالم العربي، وإسهاماً في إعداد جيل عصري عربي قادر على المساهمة في بناء الحضارة الحديثة والتوصل عبر التربية والعلم والثقافة إلى إدراك الديمقراطية والسلام تمسحياً مع مبادئ الميثاق التأسيسي لليونسكو، تُصدر مؤسسة محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber Foundation بالتعاون مع منظمة اليونسكو / UNESCO وبلاشتراك مع كبريات الصحف اليومية العربية تُوَازرها نخبة من كبار الأدباء والكتّاب ومن ورائهم الملايين من القارئین،

كتاب في جريدة

شهرياً وبشكل مجاني ومنتظم هديةً منها إلى أكبر فئة من القراء في جميع العواصم العربية والعرب في العالم.



الصفحة الرئيسية للموقع الإلكتروني لـ "كتاب في جريدة" الأربعة الأول من كل شهر على www.kitabfijarida.com



MBI AL JABER
Foundation



من جسيم رامبو إلى جسيم اليمن...



د. أحمد الصياد

أستاذ جامعي مختص بالعلوم السياسية ودبلوماسي في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) وقد شغل فيها العديد من المناصب الرفيعة حيث تولى:

- منصب سفير اليمن لدى اليونسكو حتى عام ١٩٩٦.
- انتخب لعضوية المجلس التنفيذي لليونسكو للفترة بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٣.
- انتخب رئيساً للجنة الخاصة للمجلس التنفيذي في الفترة بين ١٩٨٩ و١٩٩٠ ورئيساً للجنة البرنامج والعلاقات الخارجية في اليونسكو بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٣.
- انتخب رئيساً للمؤتمر العام لمنظمة اليونسكو في دورته السابعة والعشرين بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥.
- يشغل حالياً منصب مساعد المدير العام لمنظمة اليونسكو للعلاقات الخارجية والتعاون.
- صدرت له العديد من المؤلفات الأدبية وفي العلاقات الدولية أهمها:
- اليونسكو، رؤية للقرن الواحد والعشرين، دار الفارابي.
- آخر القرامطة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- نال العديد من الأوسمة العربية والدولية أهمها:
- الوسام الفرنسي بدرجة فارس للفنون والآداب.

أحمد الصياد ليس دبلوماسياً فقط فقد أصدر العديد من المؤلفات الأدبية ذات الطابع السردي مثل "آخر القرامطة" عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر"، وفيه يتناول بلغة "الرواية" مآسي وفواجع الحياة السياسية اليمنية، وفيه تحية لذكرى صديقه ورفيق دربه القيادي الراحل جارا الله عمر وعدد من الرفاق الذين فارقوا الحياة.

واليوم في كتابه هذا "اليمن وفصول الجسيم" يعود الصياد إلى التراجيديا اليمنية كما يسميها في تص جديد مستلهم هو الآخر من واقع التجربة السياسية في جنوب اليمن سابقاً وحاضرته الوحودي وفيه يتعرض إلى "أوضاع القمع والظلم والفساد التي تعيشها اليمن" كما يقول على لسان إحدى الشخصيات، وهو يذهب إلى أبعد بحيث يبدو وكأنه يستقرأ الأحداث الجارية اليوم في اليمن بشكل لافت عندما يتساءل "لماذا لا تقيم الجماهير لأيام ولأشهر لكي تنال حقوقها؟".

إن سؤالا كهذا في كتابه الذي صدر قبل أشهر من اعتصام الشعب اليمني في الساحات مطالباً بالحقوق المدنية والديمقراطية كما نشهر إن دل على شيء فإنما يدل على قدرة الكاتب على استبطان ما يعتدل في أغوار الكائن فرداً أو شعباً.

وفي نفس الإطار يقدم قراءة "روائية" للأحداث الدامية التي وقعت في ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ في عدن وما رافقها من إرهابات وحرب أهلية ودمار واقتتال بين الإخوة في محاولة لإعادة إلقاء الضوء على حرب "إبادة" أطلقها "الرفاق" فيما بينهم وقد أتت على الحرث والنسل كما يعلم الجميع وعبر شخصية "بطل" سردي اسمه صادق، وهو طبيب شمالي الأصل يعيش في عدن كان قريباً من السلطة هناك لكنه رفض الاختيار في اقتتال الإخوة وظل مرفوضاً هناك ومشكوكاً فيه في صنعاء، وبهذا فقد اختار بطله خارج الحلبة ليمثل دوراً "محايداً" ومعلقاً على الأحداث، يدين "الرفاق" في الجنوب لأنهم دمروا البلاد لأسباب "شخصية قبلية مناطقية" ولم يكن هناك أي مبرر للاقتتال وفي نفس الوقت فهو في رحلته شمالاً يكشف لنا عن "فساد" النظام هناك وانحلاله.

اختار الصياد شخصية "صادق" وعلاقته مع أخيه "عمار" الذي يمثل رجل السلطة في الشمال والذي لا يتورع حتى عن توريط أخيه صادق في تهمة توزيع الأسلحة والمتفجرات

أمّنه النصيري

- من مواليد مدينة رداح - اليمن.
- دكتوراه في فلسفة الفن (موسكو ٢٠٠١م)، وماجستير، من أكاديمية الدولة للفنون - سوريكوف (موسكو ١٩٩٤م).
- أستاذ مساعد «علم الجمال»، قسم الفلسفة، كلية الآداب - جامعة صنعاء.
- المعارض الشخصية:
- ١٢ معرض شخصي في ألمانيا اليمن هولندا روسيا.
- مشاركات وأنشطة:
- تزاوّل الكتابة النقدية في العديد من الصحف والمجلات المحلية والعربية، ولها أعمدة ثابتة في أكثر من صحيفة محلية.
- ترأست تحرير صحيفة "تشكيل".
- مشاركات في العديد من الندوات والمعارض وورش العمل الدولية ١٩٨٦ - ٢٠٠٩.
- مؤلفات:
- مقامات اللون (مقالات ورؤى في الفن البصري): وزارة الثقافة، صنعاء: ٢٠٠٤م.
- مواقيت لأحزان سباً (عمل مشترك مع الشاعر أحمد العواضي): صادر عن وزارة الثقافة، صنعاء: ٢٠٠٤م.
- متواليات القديم والجديد (عمل مشترك مع الدكتور عمر عبد العزيز): صادر عن دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة: ٢٠٠٣م.

E-mail : amnaart@yahoo.com

تختلط في "الرواية" السياسية هذه أساليب ورموز وإيحاءات كثيرة تبدأ بالأدب وبتاريخ اليمن وأحداثه لتشمل أغلب نواحي الحياة الاجتماعية والتقاليد والأعراف التي تظل منبثة في مختلف مشاهد الصراع الأيدولوجي والسياسي والاقتصادي، وهو بهذا يؤكد أن عمق اليمن الحضاري والانساني يظل هو الحاضرة الأكبر وله اليد الطولى فوق كل الأحداث والتطورات السياسية الدامية حيث أن البطل يقول كلمته الأخيرة في العودة إلى القرية بعد حسم النزاع بين الأخوين من خلال محكمة "مزيفة" تعود إثرها "غادة" الأخت البسيطة الذكيّة الصادقة العظوفة مع خالها "محسن" ...، إلى القرية وتظل عزباء لا تفكر ولا تقبل بالزواج من أحد وهي الجميلة التي يتمناها الجميع... وكأن الوطن ما زال 'بكرًا' وكل من ادعى مصاهرته مرفوض وغير معترف به، ولهذا فإن غادة تظل مع خالها العجوز الذي يمثل حكمة الماضي واستمرار العلاقة مع الجذور في حين يحكم على 'صادق' بالنفي خارج اليمن.

شوقي عبد الأمير

التتمة ص ٣١

صورتهم أحمد الصياد كمرابا عاكسة لشطري اليمن سابقاً وكل منهما مدان، وكل منهما يدير ظهراً للوطن ولا يأبه بحال الناس والبلاد... لكن "صادق" الذي يعيش في الجنوب لا يتورط في الصراع الدامي ولا في لعبة السلطة وبهذا فهو الأقرب إلى 'غادة' التي تعكس صورة الوطن المثاليّة...

عبر دسّها في صندوق أدوية تبرعت به السفارة الكويتية وحمله أخوه إلى قريته لعلاج المرضي، وذلك لكي يقطع الطريق أمامه في ترشيح نفسه للنيابة في المنطقة التي ينتميان إليها حيث تعيش أختها "غادة" التي أخذت رمز المثال والنبل والترفع... والتي تعكس في العمق صورة الوطن. يظهر "الأخوة الأعداء" اليمنيون الذين رسم



الهيئة الإستشارية

أدونيس
أحمد الصياد
أحمد بن عثمان التويجري
أحمد ولد عبد القادر
جابر عصفور
جودت فخر الدين
سيد ياسين
عبد الله الغذامي
عبد الله يتيم
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد ربيع
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري
ناصر العثمان
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشابة
يمنى العيد

الصحف الشريكة

الأحداث - الخرطوم
الأيام - رام الله
الأيام - المنامة
البلد - بيروت
تشرين - دمشق
الثورة - صنعاء
الخليج - الإمارات
الدستور - عمان
الرأي - عمان
الراية - الدوحة
الرياض - الرياض
الشعب - الجزائر
الشعب - نواكشوط
الشمس - طرابلس الغرب
الصباح - بغداد
العرب - تونس، طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي - الكويت
القاهرة - القاهرة
القدس العربي - لندن
الوطن - مسقط

تصميم وإخراج

Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية

صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة

بول ناسيميان

الإستشارات القانونية

"القوتلي ومشاركوه - محامون"

المتابعة والتنسيق

محمد قشمر

كتاب في جريدة

سنتر دلفن، الطابق السادس
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون / فاكس 868 835 (0)1 961+
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfjarida@hotmail.com

الراعي

محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس

شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي

ندى دلال دوغان

سكرتاريا وطباعة

هناء عيد

المحرر الأدبي

محمد مظلوم

المقر

بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الأبجائي حسب الاسم الأول.

صدر هذا الكتاب عن "دار رياض الرئيس للكتب و النشر" الطبعة الأولى -
حزيران/ يونيو ٢٠١٠

عدد رقم 154
(1 حزيران 2011)

اليمن و فصول الجسيم

عادة وأخوانها

”ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء،
وكل جزء يحسب نفسه فيها أمة“

جبران خليل جبران

لم يكن يجمع بينهما سوى أنهم من نفس الأب والأم، وكذلك حبهما اللامتناهي لأختهما غادة، أما غير ذلك فقد كان عمار وأخوه صادق يختلفان في كل شيء، ابتداءً من نوع اللعب البسيط التي كان الأب المغترب يجلبها معه عند عودته إلى القرية، مروراً بأشكال الثياب التي يرتديانها وألوانها، وانتهاءً بنمط التفكير وأسلوب الكلام وقناعة كل منهما فكراً وسياسةً.

كان عمار يكبر صادق بحوالي عشر سنوات، ولهذا كان رحيله من القرية سابقاً لرحيل صادق، الذي رحل عنها بعد سنتين من رحيل أخيه. اتجه عمار شمالاً واستقر به المقام في العاصمة صنعاء حيث وجد له أحد الأقرباء غرفة متواضعة جنوب المدينة. أما صادق فقد اتجه جنوباً عكس أخيه، وبعد رحلة طويلة استقر مع عمه في حي سكني بناه الاستعمار في مدينة عدن.

اتجه كل منهما نحو الدراسة بشغف وتنافس واضح، معتمدين في كل ذلك على المساعدة التي تصل كل واحد منهما من أب مغترب أقسم ذات يوم أن يكرس كل حياته لتعليم أبنائه، وأن لا يسمح بأن يكرر أولاده تجربته فيكونوا أميين مثله.

ولأن عمار كان يميل إلى الدراسات الأدبية، اختار صادق الدراسة العلمية. وقطع الأخوان أشواطاً متقدمة وناجحة كل في مجاله باعتراف كل من زاملهما ومن عاش معهما. وبعد رحلة الدراسة في الداخل وحصولهما على منح حكومية لإنجاز ما تبقى من الدراسة في الخارج، أكمل عمار دراسته في مجال الاقتصاد في لبنان، فيما أتم صادق دراسته العلمية في المجر، إحدى دول المنظومة الاشتراكية.

وكانت غادة، التي تصغر أخويها سناً، تتمتع بجمال تحسدها

عليه بنات القرية ونساؤها وتنال إعجاب كل الرجال. وتتميز، فوق ذلك، بذكاء يتجاوز ذكاء أي رجل أو امرأة في قريتها والقرى المجاورة. وبسبب جمالها الفاتن وطغيان بعض الرواسب الاجتماعية في قرية نائية، لم يسمح لها والدها رغم ليبراليته بمواصلة دراستها إلا إلى المرحلة الثانوية، خاصة أن المدرسة تبعد عدة كيلومترات عن القرية، الأمر الذي يحتم عليها السفر ذهاباً وإياباً كل يوم. سلّمت بما حُكِمَ عليها وكأنه قدر لا فكاك منه، لكنها واظبت على الاطلاع والقراءة، الأمر الذي مكّنها من تجاوز أخويها عمّار وصادق ثقافةً وفكراً وطرحاً. كان تدخلها في النقاش داخل البيت أو في مراسلتها مع أخويها هو الفصل والحكم بين ليبرالية عمار ومواقفه وتحمُّس صادق وتنظيراته.

وكانت غادة مخزن أسرار أخويها ومحل ثقتهما. وكان كل واحد من الأخوين يرجع إلى القرية من جنوب مدينة صنعاء أو من عدن أو عندما يعودان في المناسبات والأفراح من الخارج، يضعان كتبهما ووثائقهما في عهدها ويؤكدان لها أن لا يطلع عليها أحد وبخاصة الأخ الآخر، إذ لا يلتقي كل منهما بالآخر إلا في الجينات الوراثية والحب الأخوي لغادة. بدأ كل من الأخوين يتساءل كيف له أن يتقبل يوماً زواج غادة وخروجها من بيت الأسرة، لا سيما أن الراغبين فيها يتسابقون عند كل مرة يعود والدها من المهجر. كانت غادة تدرك ذلك تماماً وغالباً ما كانت تطمئن أخويها، كل على انفراد، بأنها لن تتركهما حتى بعد الزواج، فهي خزنة الأسرار وحافظة الأمانة. تقول لعمار وصادق: ”رغم أنني أصغر منكما عمراً، فلست أختاً فقط بل أماً أيضاً“. وعادة ما تعيد هذه العبارة المطمئنة على أخيها صادق مضيئة أيضاً:

– على الرغم من أنك أكبر مني بقليل، أعترف بأنك كنت أكثر تأثراً عند موت والدتنا التي فقدناها جميعاً في وقت مبكر. كنا عندنا في أمس الحاجة إلى حنانها وحبها. وقد ظل الجميع يؤكد لي ولك على وجه الخصوص أن أمانة عائدة بعد رحلة وجيزة ولم يجرؤ أحد في الأسرة ولا في القرية أن يقول لنا إن والدتنا قد ذهبت إلى عالم الآخرة ولن تعود رحمة بنا ورفقاً، إذ كيف لأطفال صغار أن يقبلوا أن والدتهم قد ماتت ولن تعود ونحن في أعمار بحاجة إلى عطفها ولمساتها.

نعم، لقد تأثرنا جميعاً بموت والدتنا وكان تأثرنا وتأثري أبلغ وأعمق، رغم احتضان بقية أفراد الأسرة الكبيرة في القرية وإصرار الوالد الذي فقد شريكه حياته أن يجعل منا جميعاً أفضل أطفال القرية وشبابها من حيث التعليم وشروط الحياة. ربما كان رحيل والدتنا في وقت مبكر من حياتنا قد باعد بينك وبين عمار، حيث فقدنا جميعاً الأم الجامعة الحاضنة المربية الموجهة، الأم المرجع، في أعمار كنا فيها بحاجة إلى مرجع. ومع ذلك نحن إخوة وأنا على يقين أن ما يجمع بينك وبين عمار أكثر مما يفرق بينكما. صحيح أن كل منكما قد اختار اتجاهاً يختلف عن الآخر، لكن ذلك لا يبرر التنافر والتباعد بينكما، بإمكان كل منكما أن يظل على اعتقاده وقناعاته وتوجهاته ويحرص في الوقت نفسه على العلاقات الأخوية والأسرية التي لا يمكن لأحد منكما أن يتنكر لها أو يتجاهلها. وربما تبرهن الأيام على صحة ما أقول.

وكانت دائماً تحدّث نفسها فتقول: قلت ذلك لصادق وقلت الشيء نفسه لعمار. وأنا سعيدة أنهما يعودان إلى القرية وإلى

البيت نفسه في المناسبات والأعياد، وهذا خير برهان أننا جميعاً من نفس الأسرة، نفس القرية.
أجاب صادق:

غادة يا عزيزتي، إنك تبسطين الأمور كثيراً. ما يفرق بيني وبين عمار أكبر مما يجمعنا. عمار اليوم أحد قادة نظام رجعي، يتأمر على الوطن والمواطن، ويرتبط بولاءات أجنبية، نظام ينخر فيه الفساد ويلاحق الأحرار والمفكرين. يعتقل القادة والمناضلين، يذهب، يسلب، ويفرط بكل شيء في هذا الوطن المجزأ. ما يفرق بيني وبين أخيها هوة واسعة بدأت في الصغر ولن تنتهي في الكبر، بدأت مشاكسة بسيطة واختلافاً في الأذواق عندما كنا صغاراً، أما الآن فالخلاف أكبر وأعمق. إنه خلاف عقائدي. خلاف في المنهج والرؤى. خلاف سياسي وأيديولوجي، بل خلاف في نمط الحياة والمعيشة. أخونا عمار كما تعرفين أحد عناصر البرجوازية الصاعدة، يخلط بين السياسة والتجارة. ليس زعيماً سياسياً في نظام رجعي متخلف فحسب، بل تاجر يسخر السياسة لخدمة التجارة، ويستخدم المال العام لصالح الثراء الشخصي.

لكن ليبراليته خلقت له كثيراً من الأعداء داخل هذا النظام. أتفق معك أنه نظام فاسد، غير أن الاتجاه الظلامي والعناصر الانتهازية تأخذ على أخيها نجاحه الاقتصادي السريع مع أن الكثير منهم يعملون في التجارة ويكُونون ثروات هائلة. ولأن عمار يعتبر نفسه أذكى منهم وأكثر علماً، ربما قرر أن يكون مثلهم وأن يتجاوزهم.

ربما أكثر علماً في سلطة جاهلة، لكن العلم لا يبرر الفساد. إنه الآن أكبر مستثمر وزعيم مضاربات عقارية. إنه وكيل كبار القادة وكبار الضباط والمسؤولين والمستثمر الرئيسي لأموالهم. لهذا أنا على قناعة تامة بأنه شخص فاسد في نظام فاسد وقمعي ومستبد يوسع قاعدة الفساد ويعممه. وهذا هو الوضع القائم. على كل حال يا عزيزتي، أنا عائد غداً إلى الجنوب. هذه بعض الوثائق والرسائل الشخصية، أرجو أن تحتفظي بها في صندوق الخاص،



فأنت الوحيدة التي أثق بها هنا وأؤمنها على كل شيء.

كانت لقاءات عمار وصادق في القرية تتم بحضور عدد كبير من الأهل والأقرباء، وعادة ما يتم تناول الطعام مع الأعمام والعمات، الأخوال والخالات، الصغار والكبار، إضافة إلى الأصدقاء وأحياناً الجيران. ويتخلل الوجبة الحديث والنقاش عن أي شأن يطرح. لكن عمار وصادق يتجنبان أن يوجه أحدهما كلامه إلى الآخر مباشرة وإن كان يقصده، ويتهمك على مواقفه عند حديثه مع الآخرين. ويرد الآخر بنفس الأسلوب وبهجوم مضاد ولا يفهم معانيه إلا الآخر. وقد كان معظم سكان القرية يعرف طبيعة الخلاف العقائدي والسياسي بين الأخوين اللدودين. فمع أن سكان القرية جميعهم أميون، فإنهم أصحاب حكمة واتزان، يعرفون كل ما يدور بين صادق وعمار. وكانت عادة على الدوام من يضع حداً للنقاش أو المناقرة، ليس باعتبارها أختاً أو امرأة، وإنما بحكم سعة اطلاعها وقوة حججها وعمق طرحها.

قال صادق والجميع يتناول وجبة العشاء قبل رحيله في الصباح الباكر:
أنا مضطرب يا أعزائي لأن أسافر غداً صباحاً، فالكثير من الأعمال في انتظارني. قوى الثورة المضادة لا تترك حتى الوقت الكافي للقاء بكم في هذه المناسبات الرائعة. الجميع يتأمر علينا، الجميع يريد أن تفشل تجربتنا وأن يسقط نظامنا. لكنني أؤكد لكم أن الجماهير الفقيرة وأن الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين وكل المثقفين الثوريين، وجيش الجماهير لن يسمحوا بالنيل من النظام ولا من تجربته. كما أن تحالف جماهير الثورة ودعم القوى التقدمية في العالم لن يسمح للأنظمة الرجعية والإمبريالية أن تضع لها موطئ قدم على تربة هذا الجزء من الوطن. لن نمكّن هذه القوى من أن تجهض هذه التجربة الرائدة التي يجب أن تدافع عنها كل قوى الخير في العالم.

سكت الحضور من أفراد الأسرة وضيوف القرية. أسرع عمار بالحديث موجهاً كلامه على وجه الخصوص للخال العجوز:

تصور يا خالي أننا نواجه مشاكل لا حصر لها في إيجاد اليد العاملة الماهرة للعمل في أبسط المعامل الحرفية والمصانع البسيطة التي يسعى رأس المال الوطني وكذلك الدولة لتأسيسها. لا توجد لدينا طبقة عاملة لأننا لم نشهد بعد المرحلة الرأسمالية بمصانعها وشركاتها ورأس مالها. لدينا اليوم جيش من اليد العاملة غير

المؤهلة، كما أن رأس المال الوطني والدولي يتردد في الاستثمار في بلادنا نتيجة للحوادث الأمنية المؤسفة التي ليست من تدبير الأعداء في الخارج وإنما إخواننا وأبناء شعبنا في الداخل. قاطعه الخال العجوز:

هذا صحيح يا ابني، لكن حسب علمي أن المسؤولين عندكم في صنعاء لا يسهلون معاملتهم، إنهم يرتشون ويعرقلون ويبتزون الناس ويسطون على أموال الغير. عندما كنت مغترباً في مصوع أيام الطليان كان من المستحيل أن نسمع عن رشوة أو عن فساد. أما عندكم فقد سمعت عن الرشوة والفساد من كل صغير وكبير، بل لا أخفي عليكم أنني عندما ذهبت إلى صنعاء للعلاج طلب مسؤول المستشفى الذي تعالجت فيه رشوة لكي يعطيني علاجاً مدفوع الثمن.

ابتسم صادق لسماعه كلام خاله العجوز، وشعر كما لو كان قد كسب عضواً جديداً ذا أهمية استثنائية لصالح الحزب الذي ينتمي إليه ولتوجهات النظام في الجنوب. أما عمار فقد حاول أن يخفف من وقع كلام الخال العجوز بقوله:

قد يكون هذا صحيحاً يا خالي، لكنها تظل ممارسات فردية. فنحن نسعى إلى إقامة دولة النظام وهذا ما نهدف إليه.

ولكي لا يغضب عمار مقابل إرضاء صادق فقد واصل الخال العجوز حديثه بالقول لصادق:

سمعت ما قلته، وكنت قد سمعت الكلام نفسه من إذاعتكم. لكن مؤامراتكم على أنفسكم أكثر من مؤامرات الغير عليكم. إن العمال والفلاحين يبحثون عن أعمال يعيلون بها أسرهم. هؤلاء المثقفون الذين أشرت إليهم هم دائماً مع السلطة أياً كان شكلها أو

لونها وطعمها. وينطبق على هؤلاء المثقفين الذين مع السلطة في الجنوب والشمال المثل القائل "من تزوج أمنا كان عمنا". وقد قال أحد الصوفييين في قديم الزمان عن مثل هؤلاء "إذا رأيت عالماً يلود بباب سلطان فاعلم أنه لص".

إنتهى حديث الخال العجوز محسن بغمزات ولمزات من كل من حضر وجبة العشاء، وبطأطأة رأس الأخوين عمار وصادق اللذين لم يحاول أي منهما أخذ الكلمة للرد على الخال العجوز ذي اللحية البيضاء المسترسلة. غادر صادق القرية صباحاً متجهاً جنوباً للالتحاق بعمله وبزوجته التي ظلت في انتظاره في منزلها في عدن.

كانت أرينا، التي تعرّف صادق إليها وتزوجها أثناء دراسته في المجر، في بداية تعلمها اللغة العربية، وكان من الصعب على زوجها أن يصحبها معه إلى القرية لعامل اللغة ولعوامل حياتية واجتماعية أخرى كان يرى أن من الصعب عليها أن تتكيف معها في قرية لا تزال النساء فيها يجلبن الماء والحطب على رؤوسهن من بعيد، ولا يزال بعض سكانها يعتبرون المرأة ناقصة عقلاً وميراناً، وجميع سكانها، رجالاً ونساءً، من الأميين، والأسرة الوحيدة التي نالت نصيباً من التعليم هي أسرة عمار وصادق وأختها غادة التي كان سكان القرية عندما يتحدثون عن جمالها وذكائها يضيفون إلى ذلك أنها تعرف "السبعة الأقلام". قبلت غادة كل تلك الصفات بما فيها معرفة السبعة الأقلام رغم أنها في واقع الأمر لا تعرف إلا القلم العربي وقليلاً من القلم الإنجليزي، حصلت عليه أثناء دراسة الثانوية العامة. كان القلم العربي يكفيها، لأن جميع مراسلات أصحاب القرية بالعربية. لا يوجد شخص يرغب في أن يكتب رسالة لقریب أو حبيب دون أن يعتمد على غادة. وعندما تصل رسائل بعض من ساعده الحظ في الاغتراب تكون بالقلم العربي الذي تجيده غادة وتفسر معانيه وألفاظه لكل من طلب منها أن تقرأ ما يصله.

نعم. لم تكن غادة حافظة الأسرار في أسرته فحسب، بل في القرية أيضاً. إنها من كتم سر رجل عجوز تعرّف أبناءه وأحفاده، عندما طلب منها أن تكتب له رسالة إلى ابنه الكبير المغترب في بورت سودان يطلب فيها أن يرسل له ابنه نقوداً لأنه ينوي أن يتزوج

من جديد لأن زوجته وأم أولاده بمن فيهم الابن الكبير الذي يطلب منه النقود لم تعد تسمح له بمعاشرتها جنسياً، ولذلك عزم على الزواج من امرأة أخرى من القرية المجاورة فقدت زوجها في ثأر قبلي. وعندما سألته غادة: ألا تخجل "يا شيبه" أن تطلب من ابنك أن يرسل لك نقوداً تساعدك في الزواج بامرأة غير أمه التي قضت حياتها كلها معك، أم أبناك وبناتك ومربية أحفادك، تريد أن تترك أم أولادك بعد هذه الرحلة الطويلة "يا شيبه"، قال:

يا بنتي، الشيب الذي ترينه في لحيتي من هموم الحياة لكنني صغير السن. أما أم العيال فلن أتركها أبداً، لكن لكل ضرورة أحكام. لم يعد يهم أم العيال وجودي. همها اليوم أولادها وأحفادها، ولهذا أريد زوجة جديدة للمعاشرة وربما للإنجاب. أجابت غادة:

يا شيبه، لقد خلفت سبعة ولا تزال تفكر في الإنجاب؟ ماذا ستقول لك القرية؟ ومن هذه المرأة المجنونة التي تقبل الزواج منك؟ قال:

الشيب في رأسي من هموم الدنيا. كم عمرك؟ لا أعرف، ولكن يقال إنني ولدت سنة الجراد عندما حل على قريتنا ووديانها جراد جائعة أكلت الأخضر واليابس، وسببت مجاعة أودت بحياة الكثير من الناس صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً.

وكيف نجيت من هذه المجاعة؟ الأعمار بيد الله. إذا كنت قد ولدت سنة الجراد كما تقول فعمرك الآن ثمانون سنة. ربما.

وتريد الزواج في هذا العمر؟ لم آت لكي أقنعك، فأنا أعرف أنك صعبة الإقناع وعنيدة، لكنك الوحيدة التي تكتبين في القرية، فاكتبي لي ما في قلبي يفرج الله همومك ويحفظك لأهلك ولقريتك.

لقد خرفت يا عجوز؟ ولكن هذه رسالتك لابنك وأمل أن لا يرسل لك ريالاً واحداً إلا إذا كان يكره والدته، وهذا ما لا أعتقد. أخذ الشيخ العجوز الرسالة مسرعاً لإيصالها إلى البريد في مركز المدينة التي تبعد أكثر من ساعتين مشياً على الأقدام وهو يردد:

عيرتني بالشيب وهو وقار ليتها عيرت بما هو عار.

ومثلما حفظت غادة سر الشيخ العجوز كتمت



أيضاً سر تلك الصبيّة التي فرض عليها والدها أن تتزوج من إمام الجامع في القرية المجاورة وهو في سن والدها. فقد كتبت لأُمها التي تسكن في منطقة بعيدة تشكو لها من ممارسة زوجها الذي بيعت له لقضاء ديون أبيها المتراكمة، قائلة إنه يضربها صباحاً ومساءً ويعاشرها كوحش كاسر ويزداد في عنفه كلما صرخت وأجهشت بالبكاء.

قالت لها عادة:

هل تقولين إن زوجك هذا إمام الجامع المشهور بفتاويه، وكثرة صلواته وصيامه وغازرة مواعظه؟

قالت الفتاة:

نعم. إنه إمام الجامع ذو اللحية الكثيفة. يضربني كل صباح وكل مساءً، ويضاجعني كحيوان هائج. يغتصبي ويفعل بي ما يشاء ثم يذهب إلى الجامع ليصلي بالناس وهو متسخ ونجس.

ذهلت عادة من ممارسة ذلك الإسلامي المدعي وحاولت وهي تكتب الرسالة أن تبحث عن جمل ومفردات لتصف ما تعانيه تلك الشابة من بطش ذلك المتأسلم الزنديق وعنقه. لم تسعف الجمل والكلمات عادة خوفاً من أن يفسر مضمون الرسالة في غير موضعه، فاكتفت بأن قالت للصبيّة:

سوف أكتفي بالقول إنه يضربك صباحاً ومساءً وإنه شاذ وزنديق يبطش بك يومياً، وإن هناك فرقاً شاسعاً بين ممارسة هذا المتأسلم والصورة التي تركها عند والدك.

رضيت الصبيّة بهذه العبارات التي اختارتها عادة بعناية حرصاً منها على أن لا يعرف أحد في قريتها البعيدة تفاصيل معاناتها وما حل بها. غير أنها هددت قبل أن تأخذ الرسالة وترجع إلى قرية زوجها أنها قد تقتله إذا استمر في ضربها واغتصابها والبطش بها.

حاولت عادة أن تثنيها عن هذه الفكرة وأن تصدها عن الإقدام على قتل هذا الإمام الشاذ السادي، أملة أن يتوفر حل آخر لمعاناة هذه الشابة إما بالطلاق أو الهروب أو بأي حل آخر. كم بكت عادة بعد أن غادرتها الصبيّة المضروبة، وكم تمنّت لو تمكنت هي من قتل ذلك الإمام المتشدد بالإسلام والإسلام منه براء.

كثيرة هي القصص والروايات والأحلام والآلام التي عرفتتها عادة ليس في قريتها فحسب، بل في كل القرى المجاورة، حتى أنها تمنّت لو لم تتعلم القراءة والكتابة لكي لا تعلم بمثل هذه الأوجاع والهموم والمآسي التي يعاني

منها الكثير من النساء.

وبعد أن أجهشت عادة بالبكاء واعتصرها الألم، حاولت أن تخلد للنوم. غير أن كثرة التساؤلات والأفكار حالت بينها وبين التمتع بقسط من نوم كانت في أمس الحاجة إليه.

إذ كيف لهذه القرى المنكوبة ولهؤلاء السكان المعدمين أن يعيشوا في قرن غير هذا القرن، وعالم غير هذا العالم؟ لماذا يُحرم هؤلاء السكان من أبسط حقوق الحياة؟ كيف يمكن لهذه القرى أن تستمر في استخدام المصباح البدائي ونحن في نهاية قرن وبداية آخر حافل بالاختراعات والإنجازات؟ كيف لسكان قرية أن يسمحوا لإمام جامع متأسلم أن يمارس الرذيلة ويضرب زوجته ويؤم المصلين متسخاً؟ وكيف له أن يفتي بما لا يؤمن؟ أية دولة وأية حكومة لا تتدخل إذا ما أراد الأب أن يبيع ابنته لسداد ديونه؟ لماذا تولد نساء القرية في زرائب الغنم والحيوانات لكي لا يسمع الرجال صراخ الأمهات وآلامهن؟

توقفت تساؤلات عادة في الصباح الباكر عندما سمعت أصوات الجيران وهم يتبادلون الكلام مع بعض القادمين من القرية المجاورة. سمعت أحدهم يقول:

قتلته وماتت معه.

قالت عادة دون تردد:

نفذت وعدها، إذاً. أقدمت على ما نصحتها بأن لا تقدم عليه.

تقدمت عادة نحو القادمين من القرية المجاورة تسألهم عما حدث.

ماذا تقولون؟ من القاتل ومن القتيل؟ أجابها أحدهم:

قُتل إمام الجامع عند منتصف الليل بعد مشادة مع زوجته. سمعنا صراخاً ومشادات لم تسكتها إلا طلقة من بندقية ”جرمل“، تبعتها طلقة ثانية أسكتت الصراخ وأوقفت البكاء، وصحا معظم سكان قريتنا.

وأضاف ذلك الرجل:

سارعنا بدخول منزل إمام الجامع لنجدّه جثة هامدة، وجثة زوجته الشابة على بعد خطوات من جثته.

واصل الحديث شخصٌ آخر:

يبدو أن إمام الجامع كان يضرب زوجته ويهينها حتى جاوز صبرها كل الحدود فأقدمت على قتله وماتت معه.

قالت عادة:

ولماذا لم يتدخل أحدٌ من سكان قريتكم وأنتم تعرفون أن إمام جامعكم يضرب زوجته

الشابة ويعاملها أسوأ من معاملتكم لبهائمكم؟ بل تتسابقون لرص صفوفكم خلفه في الجامع والاستماع إلى فتاويه ووعظه؟ قال أحدهم:

لم نكن نعرف كل التفاصيل. ثم إنه زوجها. أعرف أنه قد اشتراها وهي في عمر أحفاده، ولكن لماذا لم يهب أحدٌ منكم لنجدها وهي تصرخ صباحاً ومساءً وتستغيث بالكبير والصغير؟

قال أحدهم:

نسمع صراخها ولكن النساء يبكين ويصرخن لأسباب تافهة.

أجابته:

هل الضرب والإهانة والاغتصاب عندكم أسباب تافهة؟ هل أخافكم ذلك المتأسلم الزنديق؟ وهل هذه البنادق التي تتفاخرون بحملها دليل على رجولتكم أم على جبنكم؟

لكن الرجال قوامون على النساء.

قوامون أم مغتصبون؟ عليكم اللعنة إلى يوم الدين.

غادر القادمون من القرية المجاورة وهم يرددون أنها قاسية وعنيدة. ويدعون ربهم أن لا يجعل نساءهم وبناتهم مثلها. قال أحدهم:

لا تعلموا بنا تكم ونساءكم. إن تعلمن أصبح في كل بيت أكثر من عادة.

رائحة البارود تقرب

”عجيباً الجو مفعم برائحة قتال“

أرثر رامبو

دخلت عادة بيتها، وهي غارقة في دموعها وحزنها على تلك الشابة التي فضّلت أن تضع حداً لحياتها. طلبت من أقربائها أن يتركوها وحيدة في غرفتها، فلم يعد لديها القدرة على التحمّل أو سماع أي شيء. حاولت بعد فترة أن تقرأ في غرفتها، غير أنها تقرأ الأسطر والصفحات شاردة الذهن لا تفهم شيئاً مما تقرأه. لم يخرجها من حزنها على الشابة إلا حزنها على وطن. فتحت الحقيبة التي تركها عندها أخوها صادق ولفّت انتباهها عنوان أحد ملفاته: ”رائحة البارود تقرب“. فتحت

صفحاته وإذا بها تعثر على رسالة إليها موجهة من صادق غير أنه لم يسلمها إياها أو يطلعها على محتوياتها، يقول فيها:

عزيزتي، اليوم والأجواء ملبدة بالغيوم في هذا الشطر من الوطن الذي يتجه نحو كارثة محققة، أريد أن أعبرك عن اشتياقي إليك وأقول لك إن زوجتي أرينا تظل دائماً تتحدث عنك كما لو كانت تعرفك منذ سنين طويلة. أصبحت تعرف كل شيء عنك، حديثي إليها عن غادتي لا ينقطع يوماً. وهي تعرف مدى اشتياقي إليك ومدى حبي لك واعتزازي بك. لا شك، وأنت المطلعة والمتابعة، أنك تتابعين أخبار الصراع الدائر في عدن وربما التحضير للقتال، ولكنني أطمئنك أنني لن أتدخل في الصراع إذا اشتعلت نيرانه. كبيرة هي أحراني وأنا أرى الخلافات تستعر وتتسع. أبكي عندما أسمع هذا يتهم ذاك بالخيانة، وأسأله كيف يتحول من وحدتهم الأحلام والآمال، إلى أعداء يتربص الواحد منهم بالآخر. ولماذا بعد هذه المرحلة الطويلة من الصمود والتصدي لمؤامرات كادت تقضي على طموح الشعب والوطن، أصبحت القرية والمنطقة والقبيلة والسلطة الهَمّ الأول لبعضنا اليوم؟

هل تخلى البعض عن الوطن لصالح المنطقة، وعن الشعب لصالح القبيلة؟ وعن السلطة الجماعية من أجل السلطة الفردية؟ وأين أصبحت الثقافة الأممية التي رفعنا رايتها عالياً؟ كيف نوّمن بوحدة الوطن المجزأ والبعض لا يزال غارقاً في مفاهيم العشيرة والقرية والمنطقة؟ نعم، على الرغم من هذه الهموم والمخاوف أشتاق اليوم إليك أكثر من أي يوم مضى. كما أشتاق إلى تلك الوجوه الطيبة في القرية النائية التي كلما هجرتُها لحقت بي إلى المدينة لتقول لي ”انطلقت مني وأنت عائد إلي“. عجيب أمر الإنسان وأعجب منه سر المكان وروعة اللقاء بين الإنسان والمكان.

رائحة البارود تقرب لتزكم النفوس. لك غادتي كل محبتي واشتياقي لسماع كلماتك الصادقة. كم أشتاق أيضاً لرؤية وجه خالي الوضاء ولحيته البيضاء المسترسلة. فقد قالها يوماً ”قتلت الثورة من أبنائها أكثر مما قتل الآخرون منهم“. قال لي الخال محسن إننا نتأمّر على أنفسنا أكثر من تأمر الآخرين علينا. وها هو اليوم ما قاله خالنا قبل عدة سنوات يكاد يتحقق ولكن هذه المرة بأبشع صورة، وقد يقضي على كل ما بنيناها خلال عشرات السنين في كل المجالات والأصعدة.

حبي لك يا غادة، وتحياتي للخال محسن، ولكل الناس الطيبين في قريتنا النائية. مع قبلات زوجتي أرينا واشتياقها إليك. (صادق). انهمرت دموع غادة وهي تقرأ ما كتبه صادق وتركه ذات يوم عندها قبل أحداث يناير المشؤومة، وتوقفت عن مواصلة ما كتب صادق من فصول في ملفه المعنون ”رائحة البارود تقترب“. قالت:

وأنا أحبك. كل الناس هنا يتحدثون عنك ويشتاقون إليك، فما بالك بأختك. حقاً أنا مشتاقا إليك وإلى زوجتك التي تحدثت عني دون أن تعرفني. هذا من حسن خلقها. إن مشكلتك يا عزيزي صادق أنك تصدق في زمن الكذب. حلمت بواقع لا مجال فيه للحلم. أمنت بمثل ومبادئ وطنية في الوقت الذي لم يخرج فيه رفاقك بعد من محيط القرية والقبيلة والمنطقة. أنت يا أخي نبتة ورد في حقل تحيط به الأشواك من مختلف الاتجاهات. أنت اليوم محاط بأناس يسعى الرفيق فيهم إلى نحر رفيقه، والحزبي إلى تدمير حزيه وربما وطنه. أنت حقاً يا صادق نبتة لا تصلح في حقول ملغومة بالجهل والحقد والغيباء. أنت تفكر في واقع يكره الفكر والمفكرين، تتأمل وترى في واقع لا مجال فيه للرؤية ولا للتأمل. أه يا صادق كم أنا مشتاقا إليك.

أجهشت من جديد في البكاء وهي تسأل نفسها: ماذا حلّ بي اليوم؟ كنت قبل ساعات أبكي تلك الشابة التي وقعت ضحية متأسلم غاشم، والآن أبكي أخي الذي يرى وطناً يسير إلى كارثة.

غفت غادة بصعوبة بعد أن بللت دموعها تلك المخذة التي طررتها إحدى نساء القرية وأهدتها لها وقد كانت تكتب لها رسائل إلى أبنائها المغتربين في بريطانيا وتقرأ لها رسائلهم. كانت حقاً في أشد الحاجة إلى تلك الغفوة التي لم تطل. فقد أيقظها ضجيج سيارة أخيها الآخر عمار الذي وصل إلى القرية بشكل مفاجئ وبدون مناسبة. لم يصل عمار هذه المرة بسيارة واحدة بل ترافقه سيارة حراسة تتقدمه وأخرى من بعده. وما إن وصل كل هؤلاء العساكر إلى مدخل المنزل حتى تقافزوا وأحاطوا بالمنزل من جميع اتجاهاته، وأجفلت من وقع أقدامهم وضجيج تحركاتهم جميع الدجاج والحيوانات التي كانت على مدخل منزل العائلة.

استغرب جميع من شاهد ذلك المنظر غير المؤلف. خاطبت عمار عما يجري. ولماذا كل هذه الحراسة التي أفزعت الدجاج وأخافت البقر

المستكينة؟ أية معركة غير معلنة توشك أن تندلع؟ ماذا يجري؟

رافق عمار أخته إلى داخل المنزل، وتوزعت الحراسة على أركان البيت ومدخله، وبدأ عمار يشرح:

سوف تبقى هذه الحراسة معي بشكل دائم. قد يكون لدى الأجهزة الأمنية في صنعاء، والتي اتخذت هذا القرار، معلومات لا نملكها.

قالت: هل هي حراسة لك أم حراسة مفروضة عليك؟

قال: أعتقد أن الشق الأول هو الصحيح. فهناك تطورات أريد أن تفهميها. وهذا سبب وصولي المفاجئ إلى هنا.

ما هي هذه التطورات؟ الواقع أن السلطة اتخذت قراراً بترشيحي لخوض الانتخابات البرلمانية القادمة في الدائرة الانتخابية التي تقع فيها قريتنا، ولا بد أن أخوض معركة انتخابية قوية، وهذا هو سبب الحراسة والإجراءات الأمنية، لأن المنطقة كما تعرفين صعبة، توجد فيها كل الاتجاهات السياسية المتطرفة، إضافة إلى الاتجاه الإسلامي الذي يمارس الغدر والمكائد والإرهاب. لا بد إذاً من خوض هذه المعركة الانتخابية بكل تحدياتها.

لكن يا عمار لا توجد لك في هذه الدائرة الانتخابية أي قاعدة شعبية، بل يأخذ المواطنون عليك أشياء كثيرة.

ماذا يأخذون عليّ؟ يأخذون عليك أنه رغم مناصبك الرسمية المهمة في العاصمة وثروتك الكبيرة وغناك السريع، لم تغد هذه الدائرة بشيء. لم تنجز لسكانها مشروع مياه، لم تساعد في شق طريق، لم تسعف مريضاً، لم تنتزع اعتماداً لبناء مدرسة أو مستوصف صحي. كيف يمكن لهذه الدائرة أن تنتخبك وقد اقتصرت علاقتك بالقرية على الحضور في المناسبات والأعياد فقط.

كل هذا صحيح. طغت همومي على بقية القضايا الأخرى، فلم أهتم بالمنطقة ولا بهذه الدائرة الانتخابية. لكنني سوف أعوضهم عن كل ما فات وأنتزع لهم الكثير من مشروعات الخدمات. لقد ناقشنا ذلك في اللجنة الانتخابية، وسوف أطرحها بشكل واضح في برنامجي الانتخابي، ثم إن السلطة قد رصدت لهذه الحملة مبلغاً لا يستهان به وناقشت كل عوامل النجاح. لا بد إذاً من صد التيارات اليسارية والقومية

والإسلامية أيًا كانت صعوبات المعركة. قالت غادة:

لكن هل ناقشت السلطة عوامل الفشل؟ لا. قيل لي أن النجاح مضمون مئة في المئة. وهناك عامل مهم أريد أن أوضحه لك فقط وهذا الكلام بيني وبينك. ما هو؟

أنت تعرفين أنه يوجد في هذه الدائرة معسكر فيه نحو ألفي جندي، إضافة إلى أكثر من ألف جندي في المعسكر الموجود في الدائرة الانتخابية المجاورة لدائرتنا. وقد اتخذت السلطة ولجنة الانتخابات كل الإجراءات من أجل أن تكون أصوات الجنود والضباط في المعسكرين لصالحك فقط. كما توجد ميزانية لا بأس بها. كل الوجاه والمشايع والعقال في القرى المجاورة يدعمون من يعطيهم النقود.

يعني ستزورون الانتخابات؟ ليس تزويراً، بل منع القوى الإسلامية واليسارية والقومية أن تأخذ هذا المقعد.

أنت تسميها هكذا يا عمار ولكني أقسم لك برب الكعبة أنها عملية تزوير، وأنكم نظام فاسد مزور. لقد قالها لك خالي العجوز قبل أكثر من سنة، وها هي مظاهر ممارستكم الفاسدة تبرز اليوم بأجلى صورها. لم أكن أتوقع أن تقبل أن تفوز بهذه الأساليب الملتوية. ولكنني أقسم أمامك يا عمار أنني أول من يصوت لغير صالحك. أعرف أنك لا تحتاج لصوتي ولا لأصوات أبناء قريتك، فلك من عساكر السلطان ما يوصلك إلى أي منصب.

توقف النقاش بين غادة وعمار وجاءت وجبة الغداء للرجال ودعا عمار حراسته لتناول الغداء فهجموا على اللحم والعصيد كما لو كانوا يعانون من مجاعة مزمنة. أما النساء فقد تناولن الغداء في غرفة مجاورة بهدوء ونظام عودتهن غادة على ذلك في كل المناسبات والأفراح.

تهياً موكب عمار وحراسته لمغادرة القرية وأطل عمار على غادة في غرفة مجاورة ليودعها ويؤكد لها كم يحبها وكم يعتز بها.

قالت: أنا كذلك أحبك فأنت أخي، لكنني لن أشاطرك الرأي ولا الممارسة.

ثم سألتها: هل لديك أخبار عن أخينا صادق في الجنوب؟

قالت: لا توجد لدي إلا أخبار مقلقة، لكنني أصبحت اليوم على قناعة تامة بأن ما يفرق بينكما أكثر

مما يجمعكما. هذا هو استنتاجي اليوم بعد أن كنت أعتقد أن ما يجمعكما أكثر مما يفرقكما.

عانق عمار أخته غادة وصعد السيارة تتقدمه الحراسة وتتبعه، ومن جديد أفزعت الدجاج وخافت البقر بحركتها السريعة وجلبتتها.

لم يعرف سكان القرية سبب وصول عمار ولا سبب مغادرته السريعة. وما إن غاب موكبه حتى بدأت الأسئلة تتلاحق: ما سبب مجيء عمار اليوم؟ ولماذا يحاط بهذه الحراسة؟ هل يهدده أحد؟ سألتها:

ماذا يجري يا غادة؟ هل قال لك شيئاً؟ قالت:

لا شيء مخيفاً. أخونا عمار ينوي أن يخوض الانتخابات البرلمانية القادمة في هذه الدائرة الانتخابية، وأعتقد أنه من الآن فصاعداً سيتردد بشكل أكثر على القرية والمنطقة.

قال الخال العجوز محسن: لكن الناس في هذه المنطقة لا يعرفون عمار. من يعرفه في العاصمة أكثر ممن يعرفه هنا. لماذا لا يرشح نفسه في العاصمة؟ قالت:

يبدو أن السلطة هناك تريد أن يعود بعض الزعماء إلى مناطقهم للحصول على مقاعد أكثر.

لكن في الأمر مخاطرة. لا توجد أية ضمانات لفوز عمار في منطقة تأخذ عليه أشياء كثيرة. صحيح يا خالي ولكن ربما لديه وعود أخرى.

ما هي هذه الوعود الأخرى، هل هي التزوير؟ لا أعرف يا خالي. بإمكانك أن تسأله عندما يأتي في المرة القادمة.

عادت غادة إلى غرفتها في حيرة من أمرها وهي تردد بينها وبين نفسها: ”نظام فاسد ومزور في الشمال ونظام يهين نفسه للانتحار في الجنوب. أي مستقبل ينتظر هذا الوطن“.

واصل صادق رصد التحضيرات للمواجهة المدمرة مدوناً في مفكرته:

”اليوم ١٩ ديسمبر ١٩٨٥ وأنا شاردي في تأملاتي، أضع أسئلة لا أجوبة لها. يعاتبني الرفيق ماجد لأنني لم أحسم أمري بعد، أحسم أمري حول ماذا؟ لقد حسمتها وأنا في سن مبكرة، لقد اخترت طريقاً مليئة بالأشواك والأفاعي، لكنني رأيت أو تخيلت أن نهاية النفق تؤدي إلى نوع من العدل والمساواة والكرامة لشعبي ووطني برجاله ونسائه، بنجونه وشماله،

بشرقه وغريه.

لقد تربيت على حب الوطن والمواطن بصرف النظر عن قريته أو عشيرته ومنطقته. هكذا كانت ثقافتي وقناعتي. أمنت بالأفكار الوطنية والقومية بل والأمية، واليوم يعاتبني الرفيق ماجد أنني متردد ولم أحسم أمري بعد. أحسم أمري في ماذا؟ هل أدفن كل ذلك التراث، كل تلك القناعات، كل ذلك النضال الطويل والشاق؟ وهل تُدْفَن الأفكار والقناعات هكذا ببساطة كأنها لم تكن؟ ماذا حل بالرفاق؟ لماذا يحرضون ويتخذون؟ هل هناك عدوان خارجي على شعبنا وبلادنا؟ لو كان الأمر كذلك لكنت أول المحرضين والمتخذين. كم تؤلمني مواقف الرفاق هذه الأيام. لا أجد أحداً يقنعني بصحة ما يسرون نحوه. غير أن الجميع يبشر بقرب مرحلة الحسم. ما هي الخلافات الفكرية والثقافية التي يمكنني شخصياً أن أحسم أمري حولها؟

هل هناك توجهات اقتصادية واجتماعية مختلف حولها كي أحسم أمري بالنسبة لها؟ هل هناك صراع طبقي لكي أجدد إلى أي جناح أو طبقة أنتمي؟ اليوم الـ ٢٠ من ديسمبر، أشعر بتعب وألم في أكثر من موضع في جسدي. لاحظت زوجتي أرينا أن وضعي مقلق صحياً ونفسياً وأني مصاب بإرهاق شديد جسدياً وفكرياً، وأن مخاطر ذلك كثيرة علي وعلى حياتنا معاً. حثتني على أن نتوجه معاً إلى المجر لقضاء إجازة قصيرة قد تساعد في علاج أوجاعي والتخفيف من همومي.

قلت لها:

للأسف، لا أستطيع الذهاب الآن إلى أي مكان ولكني أقترح أن تذهبي لبعض الوقت ثم تعودي سريعاً.

كيف أذهب وأنت في وضع متعب. إما أن نذهب معاً وإما أن تبقى معاً.

وفي الأخير، قررنا البقاء في عدن كيما كان وضعي الصحي والنفسي. وفي ٢٢ ديسمبر، قالت أرينا:

عيد ميلادك يقترب، سوف أعدُّ للاحتفاء يوم ٢٥ ديسمبر بعيد ميلادك الذي يصادف أيضاً أفراح البابا نويل وندعو جميع الأصدقاء، فقد تساعد هذه الحفلة في إخراجك من الوضع الذي تعيشه ولو لأيام محدودة. ثم إن هناك أفراح بدء السنة الجديدة، إذا لم ترغب في أن نذهب إلى بودابست فلنذهب إلى بيروت. أعرف أنك شديد الولوج ببيروت. لقد كنت أظن في بداية علاقتنا عندما كنت تحدثني بحب عن بيروت أنك تعشق

هناك امرأة لبنانية شرقية. أما الآن فقد عرفت طبيعة العلاقة التي تشك إلى بيروت. سوف أتولى حجز التذاكر والفندق. لا تقلق.

لا أستطيع الخروج هذه الأيام لا إلى بودابست ولا إلى بيروت. الرفاق يتهمونني بعدم تحديد موقفي وإذا خرجنا فسيتهمونني بالهرب. ولماذا لا تهرب؟

لا، لن أحسم أمري للانخراط في صراهم ولن أهرب. فموقف محدد منذ زمن، كما أنني لن أخاف ولن أهرب من أحد.

هل أعدُّ للاحتفال بعيد ميلادك يوم ٢٥ كما جرت العادة؟

افعلي ما تريدين، لكن لن تجدي هذه المرة أياً من الأصدقاء والرفاق الذين نعرفهم، فقد حسموا أمرهم وانقسموا إلى فريقين، كل فريق يكن للآخر عداءً قد يؤدي إلى القتل.

عداء؟ من أجل ماذا؟

لو كنت أعرف الجواب لحسمت أمري أمس قبل اليوم يا حبيبتي.

أصرت أرينا على الإعداد للاحتفال بعيد ميلادي، وبدأت تجمع بصعوبة كل ما نحتاج إليه لمثل هذه المناسبة، غير أنها لم تتمكن من الحصول على قنينة نبيد أحمر. طلبت من كل الفنادق لكنها لم تعثر على قنينة واحدة ولو بسعر مرتفع. باءت إذاً جهود أرينا بالفشل.

٢٤ ديسمبر

تتالت الاتصالات بنا من كل من تسلم دعوتنا، يعلنون الاعتذار عن عدم حضور هذه المناسبة التي كانوا في السنوات السابقة يتسابقون على حضورها. حاولت

زوجتي أن تعرف أسباب عدم الحضور فاتضح لها أنها مقاطعة جماعية، لأنهم كانوا قد حسموا أمرهم وانقسموا إلى فريقين يترصد كل فريق بالآخر. قلت لها:

يا عزيزتي، ألم أخبرك من

قبل أن أوضاع اليوم غير أوضاع أمس؟ كان الرفيق ماجد أكثرهم شجاعة عندما قال لي مباشرة إنني لم أحسم أمري مع ما قد يترتب عليه من نتائج سلبية. أما الآخرون فقد أعلنوا

مقاطعتي دون أن يتجرأ أي منهم على ذكر أسباب ذلك الهجران الجماعي.

٢٥ ديسمبر

الساعة الثامنة مساءً، احتفلت مع زوجتي بعيد ميلادي وحيدين. ما أروع تلك الأمسية التي نجحت فيها شريكة حياتي أن تبعدني عن كل الهموم السياسية والمخاوف الفظيعة التي كانت تعشش في رأسي منذ عدة أشهر. كم ندمت على أعياد ميلادي السابقة التي كنا نهتم فيها براحة الآخرين قبل أن نهتم بأنفسنا أنا وزوجتي. وأنا أستمع مع أرينا إلى الموسيقى الهادئة، ونرقص بخطوات صغيرة وعناق غير منقطع انقطع التيار الكهربائي عن حيننا. لا أعرف إن كان الانقطاع مقصوداً لكي يفسدوا ليلتي ويعبثوا بفرحي، أم أن انقطاع التيار واحد من الانقطاعات التي يعاني منها معظم أحياء المدينة؟ رجّحت طبيعة الأوضاع السائدة واقع الشك فقلت لأرينا:

لن نسمح لهم بأن يفسدوا ليلتنا ويعكروا مزاجنا.

بحثنا في الظلام عن الشمع وشغلنا آلة التسجيل على البطاريات الصغيرة وواصلنا السهرة كما كان مخططاً لها.

تضامن الشمع معنا لكن البطاريات انتهت بعد أقل من ساعة من الاستماع إلى الموسيقى. وعلى ضوء الشموع وتلاشي صوت الموسيقى تذكرنا بعض أبيات من أشعار الحب التي نحفظها.

ذهبت اليوم التالي إلى العمل كعادتي. لم أتلق أية تهنئة بعيد ميلادي من

رفاقي الحزبيين في العمل. تجنب معظمهم أن يلتقي بي وجهاً لوجه. وسارع من يتذكر من غير الحزبيين تاريخ عيد ميلادي بالتهنئة، ولكن بعد أن يتأكد من أن أحداً من الحزبيين لا يسمعه، لكي لا يسجل عليه ملاحظات عن قرابته من شخص مغضوب عليه من الجميع.

تتالت الأيام واستمرت المقاطعة. أما أنا فقد واجهتها هذه المرة بعدم المبالاة وبالإصرار

أكثر فأكثر على أن موقفي صحيح. قلت لنفسي: "أسير حسب اعتقادي على نهج الحزب وخط الثورة. أما أنتم فذاهبون نحو جحيم قد يقضي على كل شيء، ومن ثم لن يجبرني أحد على تغيير موقفي".

تتوالى الأيام وتتسارع عقارب الصراع وتزداد لامبالاتي الشخصية مع ازدياد خوفي ممّا يُعدُّ له الرفاق المتناحرون. وفجأة قلت لزوجتي:

فلنذهب لقضاء إجازة رأس السنة في بيروت.

استغربت أرينا هذا التحول السريع في موقفي. قالت:

قبل أقل من أسبوع قلت لن نذهب إلى أي مكان لأن الجميع قد يتهمك بالهرب؟ يا عزيزتي لم أعد أخشاهم لا أفراداً ولا جماعات. أنا ذاهب معك إلى بيروت وليقل الآخرون ما يريدون.

اليوم ٢٨ ديسمبر

حزمتنا حقائبنا وأقلعت بنا الطائرة صباحاً إلى بيروت كما لو كنا في رحلة شهر عسل ثانية. فقد تعززت علاقتي بزوجتي وتجدد حبنا، بل أراه يتعمق أكثر، متجاوزاً مراحل الأولى التي أخذ خلالها عملي الحزبي والمهني حيزاً واسعاً من علاقتي بها.

بيروت ٢٩ ديسمبر ٤ يناير

أعشق هذه المدينة، وأحب هذا البلد الصغير في مساحته والكبير في حضوره من خلال شبكة أصدقائه المنتشرة في مختلف دول العالم. أشعر بالحرية في هذه المدينة، وألمس حب أهلها للحياة. قد تكون جيوب الكثيرين فيها خاوية لكن البنوك جاهزة للإقراض. الكثير يقترض لكي يظهر كل واحد منهم، وبخاصة منهن، بكامل الأناقة ويذهب إلى أرقى المطاعم ويقتني أحدث سيارة. الحياة عند هؤلاء متعة وأناقة لا يعرف خباياها إلا هم. لا أعرف كيف يعيش اللبناني ويستمتع بمعظم أيام حياته رغم قلة إمكانياته، وكثرة أوجاعه الطائفية والداخلية وتدخل الغير في شؤونهم. هل يهرب من أوجاعه ومشاكله الداخلية والخارجية إلى حياة يشعر فيها بالسعادة ولو لبعض الوقت؟ ربما. ولماذا إذاً يعيش معظم العرب في حالة بؤس وقد يملك الفرد منهم أكثر من ميزانية وزارة في لبنان؟ الحياة في هذا البلد تخفي أشياء كثيرة وخطيرة لكن ظاهرها جميل وراق. ونحن العرب، نحتاج



إلى نوع من الرقي والجمال ولو لبعض الوقت. خرجت مع زوجتي إلى بعض المقاهي التي تعودت أن أتردد عليها كلما زرت بيروت. قُدتها إلى أكثر من مكتبة واقتنينا بعض الإصدارات الجديدة التي لا نجدتها في باقي البلدان العربية. ولم ننس أن نحجز منذ وصولنا إلى بيروت في أحد مطاعمها لفضاء احتفال رأس العام الجديد. وقد كانت حقاً حفلة راقية خلال نصفها الأول، أما النصف الثاني فقد أفسده صراخ الأغاني العربية المرتفعة جداً مع مكبرات صوت لا تناسب المكان ولا المناسبة.

عدنا إلى فندقنا عندما اقتربت عقارب الساعة من الثانية صباحاً. وقبل الصعود إلى الغرفة سمعنا أصوات موسيقى عذبة قادمة من إحدى الصالات المجاورة لردهة الاستقبال. دفعنا الفضول أن نطل لمعرفة ما يحدث. عدد لا يتجاوز الخمسين من الرجال والنساء في كامل الهدام، بعض الرجال بربطة العنق الطويلة، وفضل معظمهم الربطة الصغيرة بشكل الفراشة. وتميزت ثياب النساء بأناقة أرستقراطية واضحة لم نرها إلا في حفلات الأوبرا الشهيرة أو في بعض الأفلام الرومانسية التي دارت أحداثها في قصور فيينا الإمبراطورية الشهيرة. البعض يرقص على أنغام موسيقى عذبة والبعض الآخر يتبادل الحديث والضحك الهادئ على طاولاتهم العامرة بما لذ وطاب.

شعرنا بالحرج وهممنا بإغلاق الباب والخروج مباشرة، لكن أحدهم سارع نحونا وقال برقة ملموسة ولغة إنجليزية ذات لُكنة شمال أوروبية:

هل تبحثون عن أحد؟

أجبت:

أبدأ، لا نبحث عن أحد. أنا أسف جداً، لكننا سمعنا أنغام الموسيقى ففتحت هذا الباب من باب الفضول، أرجو أن تعذرنا. تمنياتنا لكم بسهرة سعيدة وكل عام وأنتم بخير.

هممنا بالذهاب إلى غرفتنا. لكنه قال: لا. لماذا تذهبون. تفضلوا معنا. هذه أمسية رأس العام الجديد ونحن هنا جميعاً من الدول الاسكندنافية.

هيا تعالوا ارقصوا. هل أنتم متعبان؟ أخذت زوجتي إلى حلبة الرقص وإذا بنا ننسى أنفسنا في لحظات لا تنسى. همست زوجتي في أذني:

لا تخجل. أنت ترقص أفضل من معظمهم. ولماذا تخشى الآخرين أنا زوجتك؟ لكن هل رأيت شخصاً يقلب زوجته في العالم

العربي؟ بل إنهم إذا ساروا في شارع لا يلامس الزوج يد زوجته. وأحياناً يسير أمامها وليس بجانبها، أما أن يضع ذراعه على كتفها فهذا من الأعمال البطولية النادرة. وكل هذه الممارسات الغربية من أجل أن لا يراه الآخرون وأن يحافظ على كبرياء وهمية. نحن أمة لا نجهر بحبنا لمن نحب خوفاً من الآخر.

في اليوم الثاني حاولت أن ألتقي ببعض الرفاق اللبنانيين الذين يتابعون تجربة بلادنا وحزبنا. تعودت دائماً عندما أكون في بيروت أن أتصل بهم وأن ألتقي بمعظم الرفاق. غير أن الحرب الطاحنة التي حلت ببلادهم قد شتتتهم إلى أكثر من بلد، البعض في باريس وآخرون في لندن والبعض الآخر في كندا وفي بلدان أخرى. سألت عن أحد أبرزهم فقبل لي إنه خارج بيروت، لم أتمكن من اللقاء في الأخير إلا بواحد ممن أكن لهم كل التقدير والود. أردت أن أعرف آراءهم جميعاً حول ما يجري في اليمن لمعرفة ما يتابعههم للأوضاع وتواصلهم الدائم مع من نسميهم رموز النظام وقادة الحزب والدولة. ولأنني سمعت أن اثنين من أبرزهم قد تبنيا وجهة نظر أحد أطراف الصراع في عدن، حرصت على اللقاء بهما لمعرفة كيف توصلنا إلى موقف كهذا. أحدهم مناضل أممي صادق، وحزبي متمرس، وهو فوق هذا وذاك متشعب بثقافة دينية مستنيرة وفكر تقدمي وهاج أمضى "أكثر من ستين سنة من عمره في العمل من أجل الأحلام الجميلة والأمل البهي والمستقبل الباهر" وعلى الرغم من التراث الديني الذي نشأ هذا الرجل داخله، إذ بدأ حياته قومياً وانتهى شيوعياً، لكن ثقافته الواسعة تميزه عن غيره، فلا تجد لديه أي أثر للقومي المتعصب ولا للشيعوي الأعمى.

٤ يناير ١٩٨٦

أردت أن أستطلع رأي الرفيق أبو عاصي الذي أبعده حرب لبنان إلى باريس. حصلت على أكثر من رقم تلفوني لكن أياً منها لم يجب، كما أن الخطوط الهاتفية في بيروت في وضع سيئ جداً. كنت شديد الحرص على معرفة رأيه لكونه قريباً جداً من التجربة وأشخاصها، إضافة إلى أنه قد كتب عنها في أكثر من حقل، وهو أيضاً رجل أكاديمي وسياسي بارع يمكنه أن يتجاوز العلاقة الشخصية التي تربطه ببعض أعضاء هذا الفريق أو الآخر ويشخص الأوضاع ويبين أسباب الخلاف بشكل موضوعي لا لبس فيه ولا غموض. لم أتمكن من العثور عليه غير أنني تمكنت بعد صعوبة بالغة من الحديث مع الرفيق

يوسف المتواجد أيضاً في باريس.

بادرني بالسؤال:

أين أنت هذه الأيام؟

في بيروت.

قال مازحاً:

ماذا تعمل في بيروت؟ هل لا يزال فيها حياة؟

أنا أحوح إلى بيروت كعادتي، وحياتها تنهض من تحت الرماد رغم أوجاعها وصراعاتها التي لا تنتهي.

كيف أوضاع اليمن؟

أنا أتصل بك لمعرفة ما لديكم من معلومات. من في الخارج يعرف أحياناً أكثر ممن في الداخل.

الأوضاع سيئة. لقد كنت قبل يومين مع أبو عاصي واتصلنا بعدد من الرفاق هناك واتضح لنا أن المواجهة حادة، وما نامله هو أن لا تصل إلى حد استخدام السلاح، لأن التجربة لم تعد تتحمل أية مواجهة مسلحة، خاصة في ظل الأوضاع الدولية السائدة وتراجع المد التقدمي في أكثر من بلد.

كم ستبقى في بيروت؟

أنا عائد يوم غد.

لماذا لا تنتظر

بعض الوقت؟

انتهت مدة بقائي

في بيروت وأنت تعرف

أيضاً أن الحياة في

بيروت بدون نقود لا

تساوي شيئاً.

أرجو أن تكون

حذراً وإذا تمكنت من

تأخير عودتك إلى عدن

فافعل.

شعرت بعد

مكالمتي معه أن من في

الخارج يتابع مجريات

الأحداث أفضل ممن

في الداخل، خاصة أن

للرفيق يوسف تجربة

مميزة في مجال

الصحافة والإعلام،

واستناداً إلى معلوماته

كان حريصاً على أن

لا أعود إلى عدن، كما

لو كان يدرك أن ساعة

الحسم تقترب. عدت إلى

الفندق وأخبرت أرينا بمكالمتي معه، وكنت قد أخبرتها عن شعوري وشعور الجميع أن الرفاق يقتربون من ساعة الحسم العسكري. قررنا أن نتناول طعام العشاء في مطعم الفندق الذي نقيم فيه لكي نتمكن فيما بعد من تحضير حقائبنا استعداداً لرحلة العودة إلى عدن. عرضت على أرينا أن نتجه إلى بودابست وتبقى هناك لبعض الوقت ثم تعود إلى عدن عندما أتصل بها.

قالت:

مستحيل أن أتركك. إما أن نتجه معاً إلى بودابست وإما أن نذهب أيضاً معاً إلى عدن. واصلنا حوار الطرشان وكانت لها الغلبة والكلمة الأخيرة.

٥ يناير

حطت بنا الطائرة في مطار عدن ولم أجد أحداً في استقبالنا هذه المرة، بل أصر عدد من ضباط الأمن على أن يفتشوا حقيبتي وحقبيبة زوجتي. ولأول مرة. قلت لهم:

هل هذه تعليمات جديدة ومن أصدرها؟

خجل أحد الضباط الذي يعرف وضعي

الحزبي والرسمي من ذلك التصرف وقال:

أنا أسف ولكننا ننفذ ما قيل لنا أن ننفذ.



قلت:

نفذوا ما أمرتم بتنفيذه. كنت أريد فقط أن أعرف أي فريق أعطاكم هذه الأوامر لمعرفتي أنكم في جهاز الأمن قد انقسمتم إلى فريقين. أليس ذلك صحيحاً؟

لم يجب الضابط، لكنه رافقني إلى خارج المطار كما لو كان يريد أن يقول لي شيئاً ما لم يجرؤ على قوله، ودعني بلطف قائلاً أنا أسف يا رفيق صادق، لكن أنت خير من يقدر الأوامر العسكرية.

أنا أقدر لطفك. أما الأوامر العسكرية فاعذرتي إذا قلت أنها قائدتنا إلى جحيم يوشك أن يندلع.

عدنا إلى الشقة. وما إن دخلنا حتى شاهدنا العبث الذي حلّ بأثاثها ومحتوياتها. لم أتأثر بشيء شخصياً. فقد فتشوا حقائبي بحضوري في المطار لأول مرة، ومن السهل عليهم أن يعثروا بشقتي وما بداخلها في غيابي. أما زوجتي فقد تألمت وبكت أمام ذلك المنظر المشين والعبث بأغراضها، وهي شديدة الحرص على الترتيب والنظام والنظافة.

قلت لها:

أنا أسف يا حبيبتي. لم أكن أتوقع أن الرفاق قد تخلوا عن عقولهم إلى هذا الحد، غير أن أجهزة الأمن السرية تظل غبية وعمياء مهما حاولت أن توحى للجميع بأنها تعرف ما لا يعرفونه، فلو كانوا يعرفون ما بداخل هذه الشقة لما أقدموا على هذا العمل الجبان.

هكذا وجدت نفسي أتبدّل من قيادي في الحزب إلى شخص مشتبّه به تُفتش حقائبه وتنتهك حرمة منزله، لا شيء إلا لكونه لم يحسم أمره ولم ينضمّ إلى أي المتصارعين على السلطة، ولا يؤمن أصلاً بالولاءات الطائفية والعشائرية والقبلية. لقد أصبح واضحاً في ظل أوضاع اليوم أن المنطقه تطفى على الوطن، والقبيلة على الشعب، وتنتصر بعد فترة نضال طويلة ومريرة هذه المفاهيم المتخلفة على المثل الوطنية والقومية والأممية. ويتحول اليوم الصغار إلى كبار، يدعو المدنيون منهم إلى الحوار أما عساكر كل فريق فأصابعهم على زناد بنادقهم ورشاشاتهم ويقبضون على أنواع الأسلحة التي بأيديهم.

كنت أتوقع أن يحدث هذا في بلد بعيد من بلدان العالم الثالث، أما أن يحدث في البلد الذي رفع شعار ”لا صوت يعلو فوق صوت الحزب“ فلم يكن يخطر في بالي أن شعاراً كهذا يمكن أن يتحول إلى شعار لا صوت يعلو فوق صوت القبيلة والمنطقة.

٦ يناير

لم أذهب إلى عملي. تفرغت لإعادة ترتيب ما عبثت به أيادي من سميناهم أمن الدولة. حاولت أن أعيد كل شيء إلى مكانه، فأنا لا أستطيع أن أعمل في مكتبي أو داري إلا إذا كان مرتباً ومنظماً. هكذا تعودت وهكذا عشت منذ بداية حياتي الدراسية حتى حياتي المهنية، ومن ثم يصعب عليّ وعلى زوجتي أن نعيش وسط العبث الذي تركه رجال الأمن في شقتي. طبعاً تكسرت بعض الأدوات تحت أقدامهم، لكنهم لم يأخذوا أي كتاب بل إن كل وثائقي موجودة، علماً أن معظم هذه الوثائق والدراسات موجودة في أرواح اللجنة المركزية في مقر الحزب، ولا توجد وثيقة سرية أو ما شابه ذلك. أعدت ترتيب كل ذلك بشكل أقرب إلى ما كان عليه. وجمعت زوجتي الثياب وغسلتها من آثار نعال رجال أمن الدولة الأشاوس.

٧ يناير

ذهبت إلى المستشفى لمزاولة عملي. أرى نظرات الكثيرين تحقد فيّ. شعرت أن أعين الأطباء المستقلين تتعاطف معي كما لو كانوا على علم بما حلّ بي، ومطلعين على موقفي العصامي من أقطاب الصراع، غير أن لا طبيب مستقلاً حاول أن يعبر صراحة عن تعاطفه معي خوفاً من أن يسمعه مخبر أو يراه ويحسبه مع فريق ضد الآخر. كنت أرغب فقط في معرفة من أعطى أوامر تفتيشي في المطار ومن سمح لرجال الأمن بالعبث بمحتويات شقتي.

كل هذه الأعمال لا تحصل بالطبع إلا بأوامر من جهاز أمن الدولة، غير أن هذا الجهاز قد انقسم على نفسه، فرئيس الجهاز من أقطاب أحد الأجنحة أما نائبه فمع الجناح الآخر.

لم يتجرأ زميل أو زميلة، طبيب أو ممرضة، أن يعلن أي شيء، لكنهم جميعاً يعرفون طبيعة ما حدث. تلاحقت الأيام واقتربت أكثر فأكثر رائحة البارود بين الفريقين المتصارعين. كان انتظار المواجهة في مرحلته الأخيرة لا محالة.

١١ يناير

نظمت إحدى السفارات الأجنبية حفلة بمناسبة عيدها الوطني. تلقيت مع زوجتي دعوة لحضور هذه المناسبة غير أنني اعتذرت. أما أرينا فقد شجعتها على الذهاب لارتباطها بعلاقة صداقة مع زوجة القائم بالأعمال في تلك السفارة، ولحرصني أن تخرج ولو لبعض الوقت

لتخفف من واقع المعاناة اليومية، وتنسى ولو مؤقتاً ذلك العبث الذي حل بأغراضها وبأثاث شقتها التي كانت تكثّر العناية بها.

التقت هناك بكثير من نساء السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي، ورأت قلة من بعض موظفي وزارة الخارجية، وعدداً محدوداً من الحضور اليمني، لأنه ينظر إلى من يتردد على السفارات الأجنبية نظرة شك وتخوين، وخاصة من قبل أجهزة الأمن. كانت فكرة رائعة أن ذهبنا أرينا إلى هذه الحفلة. فقد عادت ومعها الخبر اليقين عن اقتحام شقتنا وعن مصدر أوامر تفتيشنا في المطار عند عودتنا من بيروت. فقد أخبرتها زوجة سفير عربي له صولات وجولات في عدن أن نائب جهاز الأمن هو الذي أصدر التعليمات بتفتيش منزلنا لقناعته أنني قد أكون أقرب إلى الجناح الآخر الذي ربما يكون قد أخفى وثائق ومخططات عندي في الشقة.

أما تفتيشنا في المطار فقد تم بناءً على أوامر رئيس الجهاز نفسه لأنه لم يعلم أن نائبه ومناقسه قد أمر بتفتيش منزلنا أولاً، ولقناعته ثانياً أننا قد نعود من بيروت بمعلومات ورسائل تعين الفريق الآخر الذي يحسبني عليه. شكرت أرينا على كل هذه المعلومات وعلى معرفة كيف يعمل رجال الأمن الأشاوس. نحن إذا متهمون من الجناحين المتصارعين. إنها تهمة في محلها غير أنها لا تستلزم كل هذه المؤامرات الأمنية التي نرى من خلالها أن كل فريق أغبي من الآخر، وأن نظرتهم لا تتجاوز أنوفهم، وأن الرياح قد تأتي بما لا تشتهي السفن، وأن الانتحار الجماعي قادم من دون ريب.

الأيام الدامية

”كل بقاء يكون بعد فناء لا يعول عليه.
كل فناء لا يعطي بقاء لا يعول عليه.“

محي الدين ابن عربي

١٣ يناير ١٩٨٦

لم أكن كثير الأحلام في منامي، وإن حلمت فإنني أنسى ذلك الحلم عادة عندما أنهض من نومي. أما إذا تذكرت حلمي أو جزءاً منه فإنني أرى في اليوم الثاني ما يشبه من قريب أو بعيد ما حلمت به في منامي. وفي مساء ذلك اليوم

وبعد أن نامت أرينا، أصابني نوع من الأرق منع عني النوم، فقررت أن أتصفح السيرة الذاتية وبعض الآثار الشعرية لأرثر رامبو الذي عاش في عدن على الأرجح عام ١٨٨٧، وسكن في قلب حي كريتر في منزل لألفريد باردي قبل أن يتعاقب على ملكية ذلك المنزل عدد من التجار. واصلت قراءة ذلك الكتاب حتى فجر صباح يوم ١٣ يناير. عندها خلدت إلى النوم وإذا بي أحلم أن أرثر رامبو يتجه ”بمركبه السكران“ نحو عدن، وتحديداً نحو ميناء التواهي الذي كان يرسو فيه.

استقبل أرثر رامبو في أعالي البحر بسرب من الغريبان. وبعد ترحيب قائد سرب الغريبان به سأله:

هل نرافكك إلى منزل باردي؟

قال رامبو:

لا. أريد أن أكون على رأس أعلى جبل، لأني أريد مخاطبة سكان هذه المدينة. قال له قائد سرب الغريبان:

قد لا يسمعك أحد من رأس الجبل، لكننا سنرافكك إلى تل مرتفع وسط عدن قد يسمعك منه معظم سكان المدينة.

وعندما وصل رامبو إلى ذلك التل محاطاً بعدد كبير من الغريبان بدأ يخاطب سكان المدينة التي عاش فيها:

يا أهل عدن، يا جميع هؤلاء السكان الذين احتضنتهم هذه المدينة كأهم أطفالها. إني أشتّم اليوم رائحة البارود. ”عجباً! الجو مفعم برائحة قتال“. لقد قلت لكم ذات يوم ”إن اليد التي تمسك بالمحراث بمنزلة اليد التي تمسك بالقلم^(١). أما اليوم فأقول لكم جهراً إن يداً تدمر لا يمكن أن تكون بمنزلة يد تعمر. إن الطلقة تقضي على الكلمة. ومن يهدم بلده ليس بمنزلة من يبنيها. إن من يقتل ليس بمنزلة من يعتقد نفساً. ألم يقل كتابكم أيها العرب والمسلمون ”إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون“^(٢)؛ أفلم يقل لكم ”ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه، وأعدّ له عذاباً عظيماً“^(٣).

يا أهل عدن ”عجباً! الجو مفعم برائحة قتال“ وإني أناشذكم اليوم من على تل هذه المدينة التي أحببتي وأحببتها، لا ترتكبوا جرم تدمير البلاد والعباد. حافظوا على هذه المدينة التي احتضنت العرب والهندوس والنصارى، المدينة التي احتضنت المسلم والمسيحي واليهودي والبوذي ومن لا دين له، وقد أعذر من أنذر. ثم نزل رامبو من أعلى التل وصعد على

”مركبه السكران“ ترافقه الغربان حتى أعالي البحار.

فجأة صحوّت من حلمي والساعة تشير إلى حوالي الحادية عشرة من صباح يوم ١٣ يناير. سمعت طلقات نار في عدن فخرجت إلى شرفة الشقة، وعندما رأيت أسراب الغربان في سماء عدن تذكرت ما قاله رامبو. غير أنني اعتقدت أن تلك الطلقات النارية المتقطعة محاولة لطرد الغربان المحلقة في سماء عدن والتي تترك آثاراً مزعجة على منازلها.

شرحت لأرينا حلمي العجيب مع رامبو وأن الغراب يكثر اليوم في سماء عدن ويطلق أصواتاً مزعجة. قالت:

لو كنا في بودابست لقلت لك إن اليوم سيكون أكثر برودة. هكذا نقول عندنا رغم أن الغراب أقل ظهوراً. أما في عدن فكثير الظهور. لكني لا أعرف إذا كان ما نقوله ينطبق على عدن أم أن غرابكم يبشر بأشياء أخرى.

قلت: هل تعرفين أن الثعابين تشعر بالهزات الأرضية قبل وقوعها؟

كثير من الحيوانات تشعر بما يحدث قبل أن يشعر الإنسان به. وصهيل الخيول مؤثر، بل سفارة إنداز، قبل وقوع الزلازل.

الخيول يا عزيزتي حيوان يتسم بالذكاء والحساسية والوفاء، ومعظم الناس لا يعرفون لغة الخيول. تعودوا على الدواب والحمير. لا تكن قاسياً ومتشامماً.

كيف لا أكون هكذا يا عزيزتي وهم يصرون على الغباء ويسيروا نحو الهاوية، ويسفّهون من يدهم على الطريق الصحيح. إنهم لا يرون ما نراه ولا ينتبهون إلى ما يجب التنبيه إليه. أليس هذا نوع من الغباء؟

لا تغضب. الأفضل أن تذهب إلى المتجر المجاور لشراء بعض الأغراض للمنزل، فهناك كثير من الأشياء التي تنقصنا، ولا تنس أن تشتري الشموع وبطاريات للراديو لأن انقطاع التيار الكهربائي يتكرر بشكل دائم.

ذهبت إلى المتجر وابتعت ما طلبته أرينا إلا بعض المواد الغير متوفرة.

عدت إلى المنزل وما إن دخلت حتى سمعت طلقات نار تدوي بكثافة في أكثر من موقع.

خرجنا إلى شرفة الشقة وإذ بهدير أسلحة ثقيلة لا نعرف مصدرها ولا ضد من. قلت:

لا شك أن المواجهة العسكرية قد بدأت.

استمعنا إلى راديو عدن وإذا به يعلن عن إحباط محاولة انقلاب تهدف إلى إسقاط

النظام، وأن قوات الأمن والدفاع قد تصدّت لهذه المؤامرة الانقلابية وألقت القبض على زعمائها الذين تمّت محاكمتهم كما تمّ تنفيذ حكم الإعدام بقيادة الانقلاب، وألقي القبض على عدد من عناصر اليمين الانتهازي تمهيداً لإحالتهم إلى المحكمة. قلت:

هل يعقل هذا الكلام؟ هل سمعت الخبر يا أرينا؟

خرجنا من جديد إلى شرفة الشقة. أوضاع غير طبيعية، طلقات في أكثر من اتجاه، قطع عسكرية بحرية في حركة دائمة، سيارات مسرعة. مصفحة تحترق. بدأت إذاً المواجهة بين الرفاق. إنها الحلقة الأولى من مسلسل الانتحار الجماعي. نعود للإستماع إلى راديو عدن، لا نسمع إلا موسيقى ثم اختفت الإذاعة كلياً. قلت لأرينا:

بدأ القتال ولا شك أن هناك جرحى يحتاجون إلى إسعاف. سأذهب إلى المستشفى للعمل مع زملائي في تقديم ما نستطيع تقديمه في مثل هذه الحالات.

غضبت أرينا من كلامي وسارعت إلى إقفال باب الشقة وأخفت المفاتيح قائلة:

لن تذهب ولن تخرج من هذه الشقة. قد تقتل قبل أن تصل إلى المستشفى، لن تذهب خطوة واحدة خارج هذا المنزل.

حاولنا من جديد أن نبحث عن إذاعة عدن لكن الإرسال انقطع. لا نعرف ماذا يجري. الإذاعات الأجنبية التي يلتقطها جهازنا تردد ما أعلنه راديو عدن قبل الانقطاع، أي أن هناك محاولة انقلابية وأن قادة المحاولة أعيدوا، وتسرد بعض أسماء من أعدوا وفقاً للمعلومات المتوفرة لديها. قالت أرينا:

هل يعقل أن يعدم هؤلاء الأشخاص وأن تتم المحاكمة بهذه السرعة؟

سألتنني أرينا: من هو المنتصر ومن هو المهزوم؟

قلت: لا أعتقد أن أي نصر، إذا سميناه كذلك، سيتحقق بسرعة، أما المهزوم فنحن جميعاً، مهزومون، الحزب، الدولة، النظام، الميليشيا، الجيش بكل وحداته، الكل يتجه نحو نهاية مظلمة. وأعتقد أن الحكمة تقضي أن أحاول الخروج غداً لمعرفة ما إذا كان بالإمكان أن

تسافري، فقد جرت العادة أن يخرج الأجانب عند حدوث معارك داخلية في أي بلد متخلف وأن يتركوه لأهله المتقاتلين. لا بد أن تغادري قبل أن يقصف هذا البيت أو تقدم إلينا جحافل

القبائل المتصارعة ويذبحونا مثل النعاج، لنهب هذا الأثاث التي حرصت على نظافته وترتيبه. قالت:

كيف تخرج؟ لقد قلتها لك، لن تخرج من هذا البيت حتى خطوة واحدة، فيما أن نغادره معاً وإما نبقى فيه ويحدث ما يحدث.

لا فائدة للنقاش مع أرينا وهي متوترة. حاولنا عبثاً أن ننام لبعض الوقت دون جدوى في انتظار صباح يوم جديد ومواجهة لم تستكمل فصولها.

١٥ يناير وأنا أتابع الأخبار من جهاز الترانزستور الذي أصبح ملتصقاً بصدري، وقعت صدفة على موقع لراديو آخر يقول إنه راديو عدن. يعلن أن من قيل أنهم قد أعدوا لا يزالون أحياء وإنهم يقودون المعارك. وأضاف أن قيادة الحزب

الجماعية في اجتماع متواصل وهي التي تتابع مسار الأحداث وتتحكم فيها. قلت لأرينا:

هل سمعت هذا الخبر؟ قلت لأرينا:

في نهاية الأمر هل هم أموات أم أحياء؟ قلت:

الآية القرآنية تقول ”وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون“^(٤).

غموض في النهار، وظلام في الليل، ومواجهات عسكرية لا تنقطع. المحطة التي عثرت عليها تختفي، تعود، تهبط وتصعد. انتقلت إلى إذاعات أخرى لمعرفة ما يدور في مدينتي، على مسامعي وأمام عيني.

الساعة الحادية عشر إذاعة عدن تعود إلى البث وتعلن بياناً

باسم نقابات العمال واتحاد الشباب واتحاد نساء اليمن يؤازر القيادة الشرعية. بعد هذا الخبر مباشرة يبث راديو عدن الآخر القريب من نذببات الإذاعة الأخرى بياناً يؤكد فيه أن القيادة الجماعية للحزب في اجتماع متواصل وأن نقابات العمال واتحاد الشباب والاتحاد العام لنساء اليمن وميليشيا الحزب يؤيد القيادة الجماعية للحزب.

الساعة الثانية عشر ”يونايتد برس“ تقول أن إذاعة الانقلابيين

تبث من لحج على بعد ٤٠ كم شمال غرب عدن. أما راديو عدن الرسمي فقد توقف عن الإرسال مرة أخرى عقب إذاعته بياناً لم يكن في واقع الأمر حسب رأي الخبراء بصوت الرئيس علي

ناصر، وإنما قرأه مذيع من إذاعة عدن. أما العقيد القذافي فيطالب بإرسال قوة لحفظ السلام في اليمن الديمقراطي.

١٦ يناير أكثر من مصدر إخباري يشير أن الرئيس علي ناصر محمد يؤكد سيطرته على الوضع وأنه لا يزال مضمداً جراحه الذي أعلن أنه أصيب بها منذ اليوم الأول للقتال. المعارك تزداد ضراوة. عدن تحترق من نيران قبائل ومناطق تصب غضبها على مدينة مسالمة تكره العنف والقتال.

آه على عدن، هذه المدينة التي أحبها وتحبني. آه على كل المدن التي أحبها وتتعرض للقصف والدمار والانتهاك. بالأمس البعيد انتهكت القبائل الجاهلة حرمة مدينة صنعاء، وبالأمس دمرت الطوائف والأحقاد جميلتي بيروت، واليوم تقصف الطائرات وتنهال ضربات المدافع براً وبحراً على مدينتي عدن. لم يعد لي مكان أحبه سوى قريتي المعلقة بين الأرض والسماء، بناسها الطيبين. كم أنا مشتاق لرؤية تلك الوجوه الطيبة التي تحتاج لكل شيء لكنها تتسامى كما لو كانت تملك كل شيء.

١٧ يناير معظم وكالات الأنباء تعلن أن السفارات

تقوم بترحيل رعاياها، خاصة بعد أن اشتدت المعارك في حي السفارات، وبدأت البواخر تظهر عرض البحر تمهيداً لنقل الأجانب من جحيم عدن.

١٩ يناير وكالة رويترز تنقل عن مصادر دبلوماسية أنه

أمكن إجلاء أكثر من ١٥٠٠ من الرعايا الأجانب بفضل تنسيق نموذجي بين البحرية البريطانية والفرنسية والسوفيتية. إلا أن عمليات الإجلاء قد توقفت بسبب ضراوة القتال، ونقلت عن بعض الأجانب الذين تم نقلهم إلى جيبوتي أن المعارك شديدة وأوضاع الحياة صعبة جداً.

”رويترز“ تنقل من جديد عن أحد الرعايا البريطانيين قوله إن الفريق الذي ينتمي معظم أفرادهم إلى الضالع يتبع تكتيكاً جيداً حيث ينسحب إلى الجبال المحيطة بعدن لإعادة ترتيب أوضاعه والتزود بالخيرة والأسلحة ثم ينزل إلى أحياء عدن لمواصلة القتال. قالت أرينا:

إذاً هل نقرب من نهاية لهذا القتال المخيف؟ أجبته:



الرئيس علي ناصر. و تعلن وكالة تاس لأول مرة أن القيادة السوفياتية، على أثر اجتماعها بمسؤولين يمينيين في موسكو، أن أية محاولة للتدخل الأجنبي في شؤون اليمن الجنوبي أمر غير مقبول. قلت:

وهذه إشارة ثالثة. فقد صمت السوفيات طيلة الأيام الأولى للمعارك. وعندما اتضح لهم أن فريقاً بدأ ينتصر على الفريق الآخر تبنا الفريق المنتصر لكي يحافظوا على مصالحهم ويظل لهم موطئ قدم في عدن.

٢٠ يناير

الساعة العاشرة صباحاً

وكالة رويترز تقول إن القوات المؤيدة للرئيس لم تعد تملك أسلحة ثقيلة وإن أسلحتهم الأساسية مدافع رشاشة ومضادات للدروع في حين يملك المهاجمون من الفريق الآخر كل أنواع الأسلحة، إضافة إلى كونهم أكثر تنظيماً. وتضيف الوكالة أن آخر المعلومات تشير إلى أن ما قيل عنها محاولة انقلابية ضد الرئيس لا أساس لها من الصحة، وأن جناح الرئيس هو الذي أقدم على اغتيال عدد من أعضاء المكتب السياسي يوم ١٣ يناير، غير أن الوكالة لم تحدد أسماءهم ولا عددهم. قلت لأرينا:

هذا يذكرني بمجزرة المماليك حيث يقال إن محمد علي باشا قبل ما يزيد على ١٩٠ عاماً قد ذبح خصومه أثناء حفلة عشاء دعاهم إليها.

ولماذا تذهب بعيداً. ربما الأقرب إلى ما حدث ما فعله منغستو هيل مريم. هل نسيت؟ لا، لم أنس. أنتِ على حق. فالمثل يقول "إتغدا بهم قبل أن يتعشوا بك"، وهو مثل سخيف ومدمر.

٢١ يناير

أجمعت تقارير وكالات الأنباء الصباحية على أن القوات المعارضة للرئيس علي ناصر أصبحت تسيطر على الجانب الأكبر من البلاد، وأنهم قد شددوا قبضتهم على أنحاء العاصمة، وأن أربع محافظات تساعدهم. أما الولايات المتحدة فتعلن على لسان الناطق باسم وزارة الخارجية أنه قد تم الاتفاق مع الاتحاد السوفياتي على عدم التدخل. أما الأمين العام للأمم المتحدة خافيير دي كويلار فقد دعا الأطراف المتقاتلة إلى السماح بإجلاء الموظفين التابعين للأمم المتحدة والأجانب الذين لجأوا إلى مقر الأمم المتحدة. قالت أرينا:

هذه مواقف جديدة، كيف تفسرها؟ هذا تحصيل حاصل. السوفيات انتظروا من ينتصر في هذه المواجهة التي عجزوا عن التحكم فيها، وعندما مال الوضع لصالح القوات المعارضة للرئيس علي ناصر وقفوا مع المنتصر، ولو انتصر الفريق الآخر كانوا سيقفون معه بدون تردد. أما الأمريكان فربما ما قالوه صحيح من أن فريق الرئيس علي ناصر أقل معاداة لهم لكن الفروق نسبية، خاصة بعد أن غابت عوامل الصراع الأيديولوجي والسياسي لصالح الصراع القبلي والمناطقي.

٢٢ يناير

وكالة الأنباء الفرنسية تنقل عن مراسلها أن الوضع أصبح طبيعياً في عدن. ولاحظ المراسل أن المياه والكهرباء والاتصالات تعود تدريجياً إلى أحياء عدن. قالت أرينا:

شيء رائع أن تبدأ مظاهر الحياة بالعودة. المياه موجودة لكنها ملوثة. ملوثة أفضل من منعدمة. أليس كذلك؟ نعم. وضع أفضل من وضع.

وعاد في الليل التيار الكهربائي فصفقنا وقبلت أرينا بحرارة زادتها عودة الكهرباء وهجاً.

٢٤ يناير

أعلنت وكالة الأنباء الفرنسية أن القيادة الجماعية التي يرأسها حيدر أبو بكر العطاس تسيطر تماماً على الموقف، وأن ميليشيا الحزب تجوب بسياراتها عدن حاملة صوراً للرئيس الأسبق عبد الفتاح اسماعيل. بعد سماع هذا الخبر والتأكد من أننا لم نعد نسمع إطلاق نار قلت لأرينا:

إذا حان الوقت لكي نخرج لشراء ما نحتاج

له ونتفقد بعض الرفاق والأصحاب ومعرفة آثار الدمار الذي لحق بهذه المدينة المسالمة.

قالت:

أبدأ. لن نخرج الآن. لا يزال في البيت ما يكفي. الخروج بعد المعارك مخاطرة كبيرة، كثير هم الناس الذين يسقطون من طلاقات مهووسة وطائشة بعد المعارك، ويقعون ضحايا في معارك لا ناقة لهم فيها ولا جمل حسب قولكم. من أين تعرفين هذه الأمور العسكرية؟ هل تخرجت من معهد الفنون الجميلة الذي تعرفت إليك فيه أم أنك كنت في مدرسة حربية لا علم لي بها.

درست في كلية الفنون الجميلة لكن هذه قضايا تؤكد عليها كل وقائع المعارك. إياك أن تخرج في الساعات الأولى لتوقفها.

وبينما نحن نتبادل هذا الحديث، أعلن راديو عدن أن اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني قد انتخبت الرفيق علي سالم البيض أميناً عاماً للحزب وسالم صالح محمد أميناً عاماً مساعداً. وأكد بيان اللجنة المركزية على ثوابت الحزب الاشتراكي.

وأعلن على إثر اجتماع لمجلس الشعب أعلن عن انتخاب حيدر أبو بكر العطاس رئيساً لمجلس الرئاسة، وتم تشكيل حكومة جديدة برئاسة الدكتور ياسين سعيد نعمان الذي سارع إلى الإعلان أن حكومته حكومة إنقاذ وطني تهدف إلى تنفيذ سياسة الحزب وإعادة تعمير البلد، مؤكداً أنه لا تغيير في سياسة اليمن الديموقراطي الخارجية.

وأعلن مجلس الشعب أيضاً عن رفع الحصانة عن عدد من المسؤولين السابقين وقرر إحالتهم إلى المحاكمة، وفي مقدمتهم الرئيس السابق علي ناصر محمد. وأعلن راديو عدن رسمياً ولأول مرة وفاة المناضل عبدالفتاح إسماعيل، الأمين العام السابق للحزب الاشتراكي اليمني. ووجه علي سالم البيض، الأمين العام الجديد للحزب، بيان نعي إلى الشعب اليمني قاءلاً إن وفاة المناضل إسماعيل قد حصلت مساء يوم ١٣ يناير.

شاركت في مراسم تشييع القادة الأربعة. حقاً كانت مراسم التشييع مهيبية، دموع على خدود معظم من شارك، حزن بين علي وجوه من تبقى من القادة، وربما خوف من مستقبل لم يكونوا مهيين لتحمل مسؤولياته. كانت الجرافات قد أزال بعض العربات والمصفحات المحترقة، إلا أن آثار الدمار الذي حل بالبلاد والعباد لا تزال بارزة بأبشع صورها. قال لي

الدكتور فهمي ونحن في مراسم التشييع:

هل تعرف ماذا حلّ بالرفيق ماجد؟
أجبتة:

لا أعرف حتى هذه اللحظة ماذا حلّ به. هذا أول يوم أخرج فيه.
وأين كنت؟

كنت في سجن زوجتي. فقد أغلقت الأبواب ومنعتني من الخروج حتى إلى الشقة المجاورة. أما الرفيق ماجد فقد كان غاضباً مني لأنه حاول أن يقنعني بأن أحسم أمرى وأنضم إلى جانبه في الصراع، فقلت له لا أعرف حول ماذا أحسم موقفى، وافترقنا منذ ذلك الحين ولم أراه بعد.

قال فهمي:

لقد أصيب في معركة المطار وأسعف إلى المستشفى لكن جراحه كانت عميقة وقاتلة. أما زميلنا الدكتور الشيباني فقد سقط بقذيفة في باب المستشفى أثناء محاولته إسعاف أحد الجرحى. الفاجعة كبيرة. لا أستطيع أن أسرد تفاصيلها هنا. ما فعلته زوجتك كان قراراً حكيماً، خاصة وأنت من أوائل الرفاق الذين رفضوا الدخول في هذا الصراع.

عدت إلى المنزل بعد انتهاء مراسم التشييع مباشرة، في الوقت الذي عادت فيه أريانا بعد أن ابتاعت بعض الأغذية التي وجدتها بصعوبة هنا وهناك، لأن ما هو متوفر في الجمعيات التعاونية كان شحيحاً جداً، وبعضها نهبه العساكر والقبائل.

قالت أريانا:

إنها حقاً مصيبة كبيرة، ربما هناك أيضاً عدداً آخر من زملائك قد قتلوا. أما الدمار فقد لاحظت اليوم وأنا أبحث عن هذه الأغراض أنه شامل في كثير من المؤسسات والمراكز الرسمية إضافة إلى المطار وغيره من المواقع الإستراتيجية.

وفي اليوم الثاني لسماع هذه الأخبار المروعة خرجت مع زوجتي في سيارتنا المتواضعة لزيارة بعض الأصدقاء ومعينة حجم الدمار الذي حلّ بالبلاد والعباد. هل هو حقاً بحجم ما أشارت إليه وسائل الإعلام العالمية أم أن هناك مبالغة وتهويلاً. ونحن نجوب من حي إلى آخر اتضح أن ما قالته وسائل الإعلام التي تبالغ أحياناً كان أقل مما نراه أمامنا في أكثر من موقع. البنى التحتية مدمرة. المطار، الميناء، المراكز الحكومية، آلاف القتلى والجرحى، تصفيات جسدية على أسس مناطقية واتهامات شخصية، مقابر جماعية وفقاً لرواية أكثر من

شاهد. دمار شبه كامل لأسلحة الجيش الثلاثة القوات البرية والبحرية والجوية والأمنية. مئات الكوادر الحزبية والسياسية والعسكرية والأمنية قتلت في هذه المعركة، أحقاد متأصلة وجروح عميقة يصعب أن تندمل بين أبناء الشعب الواحد والحزب الواحد. باختصار، تعرّض للتدمير معظم ما تم بناؤه منذ الاستقلال حتى أحداث يناير المشؤومة. وإذا كان بالإمكان إعادة بناء بعض البنى التحتية وإعادة بناء القوات العسكرية والأمنية خلال عشرات السنين القادمة، يستحيل أن تبعث الحياة في آلاف القتلى، وتندمل جراح عشرات الآلاف من الجرحى. الجراح عميقة ومتأصلة في نفوس الجميع وعقولهم. نعم، حجم الكارثة كبير وعميق يصعب على إمكانات البلاد ونوايا القادة الجدد تجاوزه. بل إن هؤلاء القادة الجدد، ورثة الرماد، لم يكونوا في يوم من الأيام مهينين لقيادة بلد في أوج استقراره وثبات أمنه، فكيف يستطيعون قيادة بلد جريح تنزف الدماء من سائر عروقه، وتتعمق الأحقاد بين سكانه ومناطقه؟ يا لهول الفاجعة التي حلت بهذا البلد، ويا لهول الجرائم والمذابح التي وقعت بحق سكانه، والدماء التي تسيل من عروقه وجروحه.

يا له من عام سعيد في اليمن، إنه مثل وهم العربية السعيدة، التي أضحت تعيسة مدمرة ومتخلفة. يا له من عيد ويا لها من سعادة. أهذا هو حقاً البلد السعيد الذي توهمنا أنه كان ذات يوم سعيداً، وهو في واقع الأمر لم يكن سعيداً، لا في ماضيه ولا في حاضره، ولن يعرف ما هي السعادة في مستقبله القريب والبعيد إذا ظل يسير على ما هو عليه. لا يختلف هذا الوهم عن تلك المبالغة التي قالها الشاعر في حاضرة اليمن صنعاء:

باريس دونك في الجمال ولندن وعواصم الرومان والإغريقي.

يا لها من سعادة ويا له من جمال ويا لها من مبالغة لا تمس التاريخ ولا الواقع بشيء. نحن في بلد نحتمل بالعام الجديد بطريقة خاصة بنا. نقلت الإنسان ونرمل النساء ونيتّم الأطفال. أه على موتى لا يعرف أحد لماذا ومن أجل ماذا ماتوا. أه على أرامل وأطفال لا يعرف أحد لماذا ترمّلن وتيتّم أطفالهن. والويل واللعنة على جيوش وقبائل تدمر ما بُني خلال عقود طويلة من الزمن والمعاناة.

وأنا في غرفتي باكياً ومعزياً، إذا بشعور وشوق شديدين أحس بهما نحو أختي غادة، أشعر برغبة جامحة في أن أغادر المدينة الحزينة

وأذهب إلى قريتي البعيدة، وأضمّ أختي إلى صدري. أه كم أحبك يا غادة. أعرف أنك تعيشين في قلق دائم عليّ، إذ لا تعرفين إن كنت حياً أو ميتاً. يكون الموت أحياناً أسهل من حياة ميتة. نعم، أعيش هنا يا غادة حياة ميتة ومن حولي إرث من رماد.

أفرغت دموعي، لا أعرف ذلك النبع الذي كانت تذرف منه، كم يجهل الإنسان نفسه وكم يجهل مخزونه من الدموع والأوهام والأحلام. خرجت من غرفة النوم لا أدري إلى أين. كانت أريانا تعرف أنني أبكي وأرغب في أن أكون وحيداً لبعض الوقت. قالت عندما شاهدتني أخرج من الغرفة أو المبكى دون أن توجه إليّ أي سؤال:

أعددت وجبة خفيفة ووجدت قنينة نبيذ أحمر لم تفتح في عيد ميلادك.

أنا حقاً في حاجة إلى كأس من النبيذ. أما الأكل فلا رغبت لي فيه.

حسناً. تعال إلى الطاولة لتشرب ما شئت. لعلك تأكل بعض الشيء.

حاولت زوجتي أن تخرجني من ذلك الكابوس، من كل الأوهام والأحلام والأحزان التي تعشش في رأسي. وحسناً فعلت.

قلت لها:

أترغبين أن نذهب إلى قريتي البعيدة النائبة؟ فأنا أشعر برغبة جامحة في أن أرى أختي غادة وأبقى هناك لبعض الوقت.

قالت:

هذه فكرة رائعة. لماذا الآن؟ هذه أول مرة تطلب مني أن أسافر معك إلى قريتك النائبة على الرغم من أنني قد طلبت ذلك منك أكثر من مرة؟ كان لرفضى سببان:

الأول أن عدن كانت تنعم بالأمن والاستقرار ولهذا لم أكن أخاف عليك في أي لحظة أن أتركك فيها وحيدة خلال زيارتي لقريتي. أما الثاني فهو طبيعة الحياة القاسية في القرية البسيطة التي تفتقد كل شيء. أماكن الراحة النظيفة شبه معدومة، والمياه شحيحة، والحياة مختلفة. إنها قرية يصعب عليك العيش فيها لعدة أيام. غير أن ما يميز هذه القرية النائبة هو طبيعة أهلها واحترامهم للأجنبي والمرأة على وجه الخصوص، وبخاصة إذا عرفوا أنها زوجة أحد أبنائهم. أما اليوم فقد تغير كل شيء. الأمن في عدن مفقود، والأحقاد بعد هذه الحرب العنيفة طاغية عند الصغير والكبير، والجراح لا تزال تدمي. لذلك لا أستطيع أن تركك تنتظريني وحيدة. حياة القرية لا تزال بدائية وعليك أن تهين نفسك

لمثل هذه الحياة لعدة أيام فقط. بعدها سوف نتجه إلى صنعاء لزيارة بعض زملاء الدراسة وكثير من الرفاق الصامدين هناك. إنهم إخوتي ورفاقي، وأنت تعرفين بعضهم من أيام الدراسة. إنهم حقاً صامدون رغم تعرض معظمهم لقمع الأجهزة الأمنية وملاحقتها بين حين وآخر.

قالت:

وهل تلتقي أخاك عمار في القرية أو في صنعاء؟

لا. لن ألتقي به في صنعاء ولن أبحث عنه. إنه من أقطاب نظام القمع والفساد. وأصبح من أكبر الأثرياء ومن أكبر رموز الفساد. لا يشرفني أن ألتقي به، أرغب فقط في زيارة صنعاء لعدة أيام للقاء أولئك المناضلين الصامدين

في وجه الظلم والقمع والنهب المنظم. هؤلاء هم إخوتي ورفاقي، قد اختلفنا أيام الدراسة بسبب انتماءاتنا السياسية بين يسارية وبعثية وناصرية، أما اليوم فقد وحد الظلم والطغيان والقمع كل هذه الاتجاهات الفكرية والسياسية،

ومن ثم فهم جميعاً إخوتي ورفاقي. لم يعد لمعظم هؤلاء الزملاء والرفاق اليوم أية علاقة حزبية بهذا التيار أو بذاك، لكن الأصيل يظل أصيلاً. فهم رموز العمل الوطني، وضمير هذا

البلد الفقير وصموده في وجه نظام القمع والنهب والفساد. أخي عمار واحد من الذين يمارسون النهب والقمع والفساد بحق البلاد

وبحق هؤلاء الشرفاء الأوفياء لمثلهم ومبادئهم. هؤلاء هم من أريد أن أزورهم في صنعاء بعد

زيارتنا للقرية.

حسناً. لنحضر لهذه السفارة ونشتري ما يجب شراؤه إذا كان متوفراً في عدن، فالأسعار هنا أفضل بكثير من تلك الأسعار المرتفعة في

الشمال.

هذا صحيح. لكن ما لا نجهده في عدن قد نجهده في أي مدينة في الشمال. الأمر مختلف. أنا شخصياً أرغب في شراء بعض الأدوية، فقد جرت العادة عندما أكون في القرية أن أعالج من

قصدي من أهلها الطيبين وأوزع عليهم بعض الأدوية للتخفيف من آلامهم، وأفضل أن أشتري هذه الأدوية من هنا إذا توفرت لكونها أرخص

ومضمونة، أما في الشمال فهي متوفرة لكن أسعارها خيالية إضافة إلى أن معظم الأدوية فاسدة. اتجهت أريانا في الصباح إلى بعض

الجمعيات والمتاجر للبحث عن المواد التي ترغب في أخذها إلى القرية، في الوقت الذي خصصت يومي للبحث عن بعض الأدوية في الصيدليات.

وقد عثرت على بعضها ولم أتمكن من الحصول

على معظم ما أبحث عنه.

كان الحزن بيناً على ملامحي، أستوحيه من أحزان السكان ومن خيبة أملي وحسرتي. وحين كنت أهم بالعودة إلى المنزل وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الدكتور كارلوس رودريغيز، أحد أعضاء البعثة الطبية الكوبية. قال لي بلغة عربية حرص على تعلمها منذ اليوم الأول لوصوله عدن قبل ثلاث سنوات:

يا لها من صدفة يا دكتور صادق أن أراك اليوم بعد انقطاع طويل. لقد خفت عليك أثناء الحرب، وسألت أكثر من طبيب عنك.

ثم سألتني عن زوجتي وعن الأوضاع بشكل عام؟ طمأنته على زوجتي وعبرت له عن استيائي وصدمتي من هول ما حدث من دمار بالبلاد والعباد. وقلت له:

أنا أعيش حالة إحباط ويأس. لقد قررت أن أتخلى عن كل شيء. سوف أذهب مع أرينا إلى قريتي النائية في الشمال لبعض الوقت ثم نذهب إلى صنعاء لزيارة زملائي ورفاقي هناك.

قال:

وماذا بعد؟

لا أعرف. ربما أثناء وجودي في القرية مع أرينا نتخذ القرار الصائب حول ماذا بعد. لكن أمل أن أراك قريباً في عدن. فأنت من أهم الأطباء وأصدق الرفاق. ماذا تعمل أمام هذه الصيدلية؟

مررت على معظم صيدليات المدينة للبحث عن بعض الأدوية لأخذها معي إلى القرية لمعالجة سكانها البسطاء والمعدمين، وللأسف لم أتمكن من الحصول إلا على الشيء اليسير. فالأدوية هنا شحيحة بعد حرب طاحنة وإن كانت رخيصة الثمن. أما في الشمال فهي غالية وبعض الأدوية فاسدة مثل نظامه.

إلى ماذا تحتاج يا دكتور صادق؟

قالها كارلوس بنوع من الاستغراب.

أحتاج إلى كل شيء فأمرض القرية كثيرة وناسها فقراء.

قال بعربيته المكسرة وبلهجة أكثر حسماً:

”أفتهمت افتهمت“ كل ما تحتاج له سيكون هذه الليلة في منزلك. أنا قادم إليك مع زوجتي سيلفيا. أخبر أرينا أن تعد لنا وجبة مجرية مثل تلك التي عودتنا عليها أكثر من مرة.

سوف تكون سعيدة أن تستقبلكم بعد أن انقطعت لقاءاتنا منذ فترة طويلة.

وصل كارلوس مع زوجته سيلفيا في الساعة الثامنة مساءً حاملاً معه كرتوناً مليئاً بالأدوية التي أريدها لمرضى القرية. أما سيلفيا فجلبت

قنينة من الشراب الكوبي (هافانا كلوب) إضافة إلى سيجار ”كوهيبا“ الشهير وحلويات لبنانية. شكرناهما على كل ذلك ورحبنا بهما. أكدت لهما أن الأدوية أكبر هدية لي ولأبناء قريتي النائية، وعبرت لهما عن جزيل الشكر والعرفان. قال كارلوس:

الدكتور ”باتستا“ لتكون موقعاً متقدماً للرفاهية وممارسة الدعارة والترفيه على أغنياء أمريكا وبخاصة سكان فلوريدا القريبة والثرية. دعتنا أرينا وسيلفيا إلى طاولة الطعام كما لو كانتا لا ترغبان في أن تستمعا من جديد إلى نقاش سياسي. كانت زوجتي حقاً مبدعة في



لا شكر على واجب يا رفيق صادق. هذه الأدوية صنعت كلها في كوبا لمعالجة المرضى حيثما كانوا. أنا سعيد أنك ستحملها لسكان القرية البعيدة، فهم حقاً أكثر حاجة من سكان المدينة.

قلت:

أنا معجب بتجربتكم في ثلاث مجالات:

الأول صمود جزيرة صغيرة تحاصرها أعتى وأعظم قوة في العالم. الثاني إنجازاتكم الطبية، فهذا البلد الصغير يضاهاه بل يتجاوز أكثر من بلد صناعي متقدم في المجال الطبي.

أما الإنجاز الثالث ففي المجال التربوي، حيث تخلصتم من الأمية وتبنيتم منظومة تربي متكاملة تعتبرها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ”اليونسكو“ تجربة رائدة على المستوى العالمي. هناك مجالات أخرى لها من الأخذ والعطاء شأن كبير.

هذا صحيح، وكان بالإمكان أن ننجز أشياء كثيرة غير أن الحصار المفروض علينا قد أعاقنا في أكثر من حقل. أمريكا تريد أن تعيد جزيرتنا الصغيرة إلى ما كانت عليه في الماضي أيام

إعداد تلك الوجبة المجرية الشهيرة باعتراف سيلفيا وكارلوس. حاولنا جاهدين أن نحصر النقاش في قضايا عامة بعيداً عن السياسة، لكن سرعان ما يخلق شبح السياسة فوق كل شيء. سألت كارلوس عن الأحداث الأخيرة التي دمرتنا وأعادتنا عشرات السنين إلى الخلف وأكدت أن التجربة تعتبر من وجهة نظري منتهية أياً كانت نوايا القادة الجدد الذين وجدوا أنفسهم أمام إرث من رماد.

قررنا أن لا نتحدث في قضايا سياسية وأن ننتقل إلى قضايا أخرى مثل الخمرات. سألت كارلوس:

هل حدثكم أستاذ اللغة العربية عن خمرات أبو نواس؟
أجابني قائلاً:

حدثنا ذات يوم ليس عن شعر أبو نواس بل عن نكتة تنسب إليه. حث قال لنا إن الخليفة دخل ذات يوم فجأة على مجلس أبو نواس وقد كان يحتسي كأساً من النبيذ، فلما شاهد الخليفة أمامه أخذ الكأس بسرعة وأخفاه خلفه وقام لتحية الخليفة. فقال له الخليفة ماذا تخفي يا أبو نواس في يدك الأخرى خلف ظهرك؟ قال أبو

نواس إنها كأس من الماء يا مولاي. قال الخليفة ولماذا تخفي الماء؟ أرنا ذلك. فأراه الكأس وإذا به أحمر اللون.

قال الخليفة هل الماء أحمر اللون يا أبا نواس؟ فأجابته: لقد خجل من مقدمك وجلالة مقامك وهذا سر حمرة يا مولاي.

ضحكنا جميعاً لهذه النكتة وطلبوا مني أن أسمعهم بعض أبيات لأبي نواس.

قلت لهم الأدب العربي وخاصة قديمه يحتوي على تراث مميز وثري في مجال الخمرات، غير أن أبا نواس يظل شاعر الكأس دون منافس.

قالت سيلفيا رودريغيز:

إنه شعر عظيم قد يصعب علينا المتعلمين للغتك العربية معرفة أعماقه وجماله، لكنني ألاحظ أنه يحبذ ما حرمه الأمراء والسلاطين ماضياً وحاضراً وهذا هو الفرق بين خمراتكم وخمرات أمريكا اللاتينية.

قلت لها:

ماذا تعنين؟

قالت:

المنع والتحرير يضيفي على شعركم شيئاً من الروعة، لأنه يتحدث عما تعتبرونه محرماً، أما في أمريكا اللاتينية فالشراب والأنس مسموح بهما، هذا جزء من حياتنا الخاصة ونجهر به قديماً وحديثاً.

ثقافتنا وتراثنا مليئان بالمحرمات وحاضرنا يمنع ما سمح به ماضينا.

قالت وبدعم واضح من أرينا:

ولماذا لا تتكلمون عن الحب؟ فالحب هو الحب في ثقافة أمريكا اللاتينية أو في الثقافة العربية.

ربما كان هذا صحيحاً، لكن حبنا يجمع مثل حياتنا. فلنقل ما نعرف من أشعار الحب ثم نستمع إلى أم كلثوم وفيروز، فهناك مقاطع في غاية الروعة والجمال في وصف الحب والعشق والحياة عموماً.

هل تتذكر أبياتاً من الشعر القديم؟

سألني كارلوس؟ قلت:

أبيات وليس قصائد.

يا لها من أمسية رائعة مع كارلوس وزوجته التي فاجأت الجميع بقولها:

حان وقت الرحيل. لقد كانت أروع سهرة نقضيتها في عدن منذ وصولنا إليها قبل ثلاث سنوات.

أجابتها أرينا:

أنا سعيدة بذلك وإن شاء الله نلتقي قريباً.

سأل كارلوس:

هل تغادرون غداً؟

نحن الآن غداً. فالساعة تشير إلى الخامسة صباحاً. أعتقد أننا قد نؤجل الرحيل إلى بعد غد لكي نرتاح بعد هذه السهرة الجميلة.

صحونا في حدود الساعة الواحدة ظهراً. بدأنا غسل الصحون وأدوات المطبخ واستمرت أرينا كعادتها في تنظيف ما اعتبره نظيفاً وترتيب ما اعتبره مرتباً. قلت لها:

سأذهب لتوديع جبران وعمر، فهما من أصدقائي القدامى، وقد علمت أن أياً منهما لم يحدد موقفاً أيام الجحيم والدمار، وأعدك بالعودة سريعاً.

قالت:

لا بأس ولا تنس أن تمر على إحدى المحطات ليلقي الميكانيكي نظرة على السيارة ويزودها بالزيت والبنزين فرحلتنا طويلة وصعبة.

وجدت جبران في عمله في مركز الأبحاث التابع للجنة المركزية. فوجئ برويتي، نهض وهو يقول:

هذا يوم سعيد أن أراك بعد فترة طويلة من الانقطاع.

تناولنا شيئاً من القهوة وتبادلنا الحديث. بادرني جبران:

أخبرني ما سر قدمك اليوم؟

بكل بساطة أتيت لتوديعك، سأغادر غداً صباحاً مع زوجتي إلى قريتي النائبة في الشمال، فبقائي هنا ومشاهدة ما حدث يومياً يسبب لي مشاكل نفسية لا تحتمل. عندما أرى ماذا حلّ بهذه المدينة المسالمة، وأتذك عدد القتلى والجرحى، وكيف تمّ القضاء على تجربتنا ونظامنا، وكيف شقّ الحزب الذي ترعرعنا فيه معاً من أيام حركة القوميين العرب حتى يومنا، كل ذلك يسبب لي كآبة، ولدي رغبة جامحة في الذهاب إلى الريف إلى قريتي لبعض الوقت.

قال:

ماذا بعد؟ هل ستعود؟

لا أعرف ماذا يحدث لي في المستقبل. فقد أصل بعد تواجدي في القرية وبعد زيارتي لرفاقي في صنعاء إلى رؤية أكثر وضوحاً للإجابة عن سؤالك. أشتاق لأختي في القرية، ولخالتي الشيخ العجوز الذي يملك رؤية وبصيرة نافذتين لو سمعه القادة ما حلت هذه الكارثة. إنه رجل لا يقرأ ولا يكتب لكنه موسوعة ورجل حكمة، القعود معه لا يمل. كان ينتقدي ويقول لي دائماً إن ثورتكم تأكل أبناءها مثل كلبة

عبد الرب في القرية المجاورة عندما لا تجد ما تغذي به صغارها تأكل واحداً منهم ثم ترضع بقية صغارها من الكلاب. أما أنتم فالقتل .. ليس لإرضاع الجياع وإشباعهم، بل لأوهام ومؤامرات أنتم من يكتبها ويخرج حلقاتها.

هل أفهم أن قرار رحيلك غداً نهائي؟

نعم. إنه كذلك في الصباح الباكر.

هل أخبرت جهاز الأمن؟

لا. لم أخبر أحداً.

هل تسمح لي أن أخبرهم وأن أبلغ بسفرك بعض أعضاء لجان الوحدة، فأنت قيادي بارز وطبيب مبدع لا بد أن تعلم الجهات الأمنية بتأمين حمايتك مع زوجتك خاصة وهي

أجنبية؟

أخبر من تريد، ولكن لا أنا ولا زوجتي نرغب أن نرى وجوه أي منهم، لا نريد مساعدة من أي عضو من أعضاء لجان الوحدة ولا حماية أمنية.

اتجهت بعد توديع جبران إلى منزل عمر، ذلك الرجل الذي كان من أوائل الطلاب الذين تخصصوا في مجال الإعلام والاتصال في قسم صحافة في بيروت. كان عمر يحلم بأن يكون يوماً صاحب جريدة أو مجلة يفتح أبوابها لكل الكتاب والمثقفين، من يتفق معهم ومن يختلف. كان عمر يعتبر الحرية والديموقراطية وجهين لعملة واحدة، وأن وجود الصحافة الحرة



والمستقلة جزء من حياة المجتمع الديموقراطي. قال لي ذات يوم إن هناك مجموعة من التجار المغتربين قد اقتنعوا بمشروعه وعبروا عن استعدادهم لتمويله، وأنه قد بدأ في البحث عن التصريح الرسمي.

قلت له:

هؤلاء التجار الذين وعدوك بالتمويل يعرفون مسبقاً أنك لن تحصل على تصريح رسمي لإصدار جريدة أو مجلة مستقلة ولهذا وعدوك بشيء لن يتحقق.

قال:

لكن جريدتي ستكون للجميع. بإمكان مثقفي الحزب وغيرهم وكل الكتاب والمثقفين داخل الحزب وخارجه أن يتحاووا عبرها. إنها جريدة للحوار البناء المستقل لكل تيار سياسي أو فكري. إنها لمن يعتقد أن لديه وجهة نظر، ومن لا تعجبه وجهة النظر هذه من حقه أن يعقب عليها في الصفحة نفسها.

قلت له:

أنت من أنجح الإعلاميين، وكثير هم الناس الذين يشترون الصحف الرسمية عندما يكون لك مقال في إحداها، لكن أن تصدر جريدة أو مجلة مستقلة تجسّد عبرها كل هذه الأفكار، أعتقد أنه حلم لن يتحقق لا في الزمان ولا في المكان.

قال:

لقد فاتحت بعض العاملين في وزارة الإعلام حول هذه الفكرة وإني أرغب في الحصول على تصريح رسمي.

وماذا قالوا؟

قالوا إنهم يدرسون الطلب.

كم من الزمن مضى وهم يدرسون هذا الطلب

يا عمر؟

أكثر من ستة أشهر.

أكثر من ستة أشهر لدراسة صفحة واحدة؟

الطلب في نصف صفحة وليس في صفحة كاملة.

استاء عمر من حديثنا واستمر يحلم ويكتب بين الحين والآخر في الصحافة الرسمية. لم أسمع شيئاً عن عمر أيام الأحداث الدامية ولا بعدها. وعندما طرقت باب منزله لتوديعه فتحت الباب زوجته أم فراس، مرحبة ولكن ببرودة لم أكن أعدها فيها. قلت:

أنا مغادر غداً إلى قريتي، وقد أتيت لتوديعك وتوديع عمر الذي لم أره منذ فترة طويلة.

فاجأتني أم فراس بدموعها الغزيرة ووجهها المتجهّم الحزين قائلة بصوت متقطع:

ألم يخبرك أحد بما حدث؟

لا. ماذا حدث؟

البقية في حياتك.

انهرت حقاً أمام فاجعة ما سمعت. ارتجف جسيمي وتلعثم لساني، وانهارت قواي. واختل توازني للحظات. ارتبكت أم فراس لكنها سارعت بمساعدتي على الحركة. قبّلت رأس أم فراس وأنا أجهدش بالبكاء من دون أن أنطق بكلمة واحدة. اتجهت بخطى ثقيلة وغير متوازنة نحو السيارة، ومكثت داخلها لبعض الوقت، ثم تحركت بها لا أعرف في أي اتجاه ولا أي شارع سلكت حتى توقفت أمام منزلي.

صعدت الدرج بصعوبة بالغة. توقفت قليلاً قبل أن أطرق باب الشقة. جففت دموعي قبل أن أطرق الباب. فتحت أرينا قائلة مباشرة بالسؤال:

ماذا حل بك؟ لماذا تبكي؟ ماذا حدث؟

وبصوت متقطع وتوقّف بين كلمة وأخرى تمكنت من القول:

لقد قتلوا عمر.

لم أتمكن من الإجابة على أسئلة أرينا. اتجهت إلى حجرة النوم التي أصبحت مبكاي ومجففة دموعي الغزيرة التي تنهمر من نهر لا ينقطع. وكعادتها لم تحاول أرينا إزعاجي، غير أنها أعلمتني من خلف الباب أنها متجهة لترى أم فراس. سمعت باب الشقة يغلّق بعنف لا يمتُّ بصله إلى ما تفعله أرينا عادة عندما تغلقه. طال بقاء أرينا مع أم فراس. انتقلت من غرفة النوم إلى الصالون ثم إلى الشرفة ودموعي تسبق دائماً خطاي. عادت أرينا حوالي الساعة مساءً بوجه متجهم وعيون حمراء. لم أوجّه لها أي سؤال غير أنها قالت بصوت مرتفع:

هل تعرف أن فراس لا يزال ينتظر عودة أبيه غداً يحمل له اللعب ودفترًا جديدًا للرسم، يرسم فيه بابا وماما وجِدو بكل الألوان.

لم أرد على أرينا بشيء. أخذتها من يدها واتجهنا إلى الصالون، ذهبت إلى المطبخ قدمت لها فنجان شاي وكأساً من الماء. وليلة أخرى لم يتمكن أيُّ منا أن يغمض عينيه. أما القرار فقد أخذ وبدون تردد: أن يكون الرحيل صباحاً. نهضنا باكراً وعلامات الإرهاق بادية على وجهينا وجسدنا ومع ذلك سارعنا إلى نقل ما كنا قد جمعناه لرحلتنا من ثياب وأدوات نحتاج إليها، وفي المقدمة الكرتون المليء بالأدوية لمعالجة أمراض القرية. بصعوبة أدخلنا كل تلك المواد إلى سيارتنا المتهاكلة، واتجهنا نحو الطريق الطويل الذي يقودنا نحو مقصدنا. وقبل أن نبليغ أطراف المدينة اتضح أن السيارة تحتاج

إلى بنزين وزيت وهواء لإطاراتها. كل هذه التجهيزات كانت أرينا قد طلبت مني بالأمس أن أقوم بها لكن فاجعة ما حدث لعمر أنستني حتى كيف عدت بالسيارة إلى المنزل.

توقفنا في محطة البنزين، وطلبت من العامل فيها أن يتكرم بمعاينة السيارة ويزودها بما تحتاج إليه. لاحظ ذلك العامل الذكي أن الإرهاق باد علينا، فقدم لنا الشاي في الوقت الذي استمر فيه في تجهيز السيارة. كنا حقاً بحاجة إلى فنجان شاي. شكرنا العامل على مبادرته، ودفعنا له قيمة البنزين والزيوت. قال وهو يودعنا كما لو كان يعرفنا من زمن:

أرجو أن لا تسرعوا فالطريق صعب. وهناك الكثير من السائقين الذين لا يعرفون قواعد السير والمرو.

شكرناه على نصيحته وبادلناه التحية، ثم دخلنا ذلك الخط الطويل بانتباه وحذر شديدين. أثار المعارك بادية هنا وهناك. آلات محترقة. عساكر وقبائل لا يزالون مدججين بالسلاح وعلى أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ كما يقولون. لم يعترض طريقنا أحد. لا أعرف إن كان ذلك من باب الصدفة أم أن جبران قد أخبر الجهات الأمنية وقامت بدورها دون أن ألاحظها. ولهذا لم يوقفنا أحد في ما يسمى أراضي الجنوب وكانت أول نقطة تفتيش نقف أمامها هي تلك الواقعة على الجانب الشمالي بين ما يسمى الحدود بين الشطرين.

ثروة من فساد

”بلاد زائرها واقف، وسكانها خائف الشبهة بها نائمة والمهزولة ساهرة جائعة“

عمرو بن مالك بن ضبيعة

سألني الضابط: أين أوراقكم؟

قدمت له وثائق السفر الخاصة بي وبزوجتي.

قال: هل تحملون أسلحة؟

لا نحمل حتى سكيناً.

طلب أن أفتح صندوق السيارة ففعلت ما طلب.

ماذا بداخل هذا الكرتون الكبير؟

بعض الأدوية. أما الحقائب فلا تحتوي إلا على ملابس شخصية.

طلب أن أفتح الكرتون. قلت:

إفعل ما تريد.

طلب من العسكري المرافق له أن يفتح

الكرتون بالسكين المعلّ في أعلى بندقيته الآلية. لاحظ أن الكرتون لا يحتوي إلا على كمية من الأدوية. قال: لماذا كل هذه الأدوية؟

قلت: أنا متجه إلى قرية نائية معظم سكانها مرضى وأريد أن أقدم لهم ما أستطيع تقديمه من العلاج.

وهذه المرأة التي معك من هي؟

إنها زوجتي.

هل هي مسلمة؟

قلت: إنها من قبائل عيسى بن مريم.

قال: يعني مسلمة.

قلت: كيف عرفت؟

زوجة عمي اسمها مريم وكثير من نساء قريتنا يحملن أسماء مريم والجميع مسلمون عندنا رجالاً ونساءً.

قلت للضابط الذي شعرت أن فيه نوعاً من الطيبة في نظرتة نحونا:

من أي قرية أنت؟

من قرن الأسد.

قلت: قرن الأسد لم تعد قرية بل مدينة بحكم كثرة المغتربين منها.

قال: هذا صحيح. من أين أنت؟

أنا من قرية صغيرة لا تبعد كثيراً عن قرن الأسد اسمها قرن منصور.

أنت من منطقتنا إنذاً.

قلت: إذا أردت، وكلانا له قرن ولكن يبدو أننا لن نتناطح أبداً. ولكن هل للأسد قرن عندكم؟

نظر إليّ بابتسامة قائلاً:

الأسد أسدنا نضع له قرناً وقت ما نريد وننزعها عندما نشاء، وأنتم لماذا وضعتوا قرناً على رأس منصور؟

الحكايات المتداولة تروي أن منصور اسم ثوركان مالكة يستخدمه في الحراثة من الصباح إلى المساء، وما إن ينتهي ذلك الثور من عمله حتى يتجه تلقائياً إلى رأس الجبل المطل على أكثر من وادٍ يتأمل ما حوله ويتمنى أن يطعم من ثمار كل الوديان. وعندما يتعب يربض في قمة الجبل. ولم يعد الناس يرون سوى قرنيه، فأطلقت التسمية على ذلك الجبل ”قرن منصور“ والعهد على الراوي.

حتى ثورككم يتأمل ويفكر، إنه ثور مثقف.

ضحكنا معاً ثم أذن لنا بالمرور محذراً إيانا من سيارات الشحن الكبيرة، لأن سيارتنا كما قال صغيرة ومتهاكلة. شكرناه على لطفه وواصلنا رحلتنا في اتجاه مدينة تعز.

وأنا أغادر أول حاجز أو نقطة تفتيش عند الحدود بعد أن فتشنا الضابط وبعد أن دخلنا ما

يسمى بحدود الشمال بدأت أردد كلمات وأبيات شعرية:

”نصف بلاد لا تكفي

نصف صباح لا يكفي

نصف صديق لا يكفي،

ويخاتلني فرح ينشر ضوءاً مكسوراً

فوق مسائي

أية أشباح تسرق نصفي؟

أي غراب يصطاد إذا جاء الليل

غنائني“^(٥).

مررنا بأكثر من نقطة وحاجز حتى مداخل تعز. قلت لأرينا:

ما رأيك أن نقضي ما تبقى من اليوم وننام الليلة في هذه المدينة، خاصة أننا لم ندم البارحة.

قالت: فكرة جميلة. لما لا.

اتجهنا نحو أحد فنادق المدينة الواقع على هضبة تطل على معظم معالم تعز. انتظرتني أرينا في السيارة في الوقت الذي نزلت لمعرفة إذا كان في الفندق غرفة فارغة. نظر إليّ عامل الاستقبال بنوع من الغرابة، قائلاً:

الغرف فارغة. تفضلوا...

عدت إلى أرينا. أخذنا بعض ما نحتاج إليه من السيارة وأغلقنا أبوابها وعدنا إلى عامل الاستقبال. طلب أوراقنا فقدمتها له. قال:

هذه المرأة الأجنبية زوجتك؟

قلت: نعم.

هل لديك ما يثبت ذلك؟

مكتوب في جوازها أنها زوجتي.

قارن بين الجوازين وتأكد له صحة ما قلت فأعطاهم مفتاح الغرفة أما الجوازات فقال إن الأمر يقتضي أن يحتفظ بها حتى مغادرتنا الفندق. تركناها لديه واتجهنا نحو الغرفة الواقعة في الطابق الثالث وتطل على معظم معالم المدينة. سارعت أرينا لالتقاط بعض الصور بآلة التصوير العتيقة. سألتني:

هل عرفت هذه المدينة من قبل؟

كنت أعرفها لكنها توسعت وتجاوزت بامتدادها ما كنت أعرفه، غير أن لي في هذه المدينة الكثير من الأصدقاء والرفاق من أيام الدراسة والعمل الوطني، لكن للأسف لا يوجد لدي عنوان أحد منهم.

ارتحنا لبعض الوقت. سألنا عامل الفندق إذا كان ممكناً تحويل بعض الدنانير الجنوبية إلى ريبالات شمالية، ففعل وحدد الأسعار دون أن نناقشه في شيء. طلب لنا تاكسي وقال له سوف أحاسبك عندما تعود بهم إلى الفندق.

سألنا صاحب التاكسي:

إلى أين تريدون الذهاب وكم ساعة ستبقون في المدينة.

قلت له: خذنا نحو المدينة القديمة وقد نبقى هناك حوالي ساعة.

أخذنا السائق إلى باب الأشرافية وقال:

بعد ساعة سأعود لكم إلى هنا. اللقاء أمام هذا المتجر.

دخلت أرينا أكثر من متجر. لاحظت توفر المعروض من السلع بالمقارنة مع شحة المعروض في عدن، أما الأسعار فقالت إنها أكثر من خيالية. تركنا المتاجر واتجهنا نحو جامع المظفر الشهير وزرنا الحي المحيط فيه. أعجبت أرينا بما شاهدته، وأنا أحدثها عن هذه المدينة وعن قلعة القاهرة التي تطل عليها، وعن السمات التي يتسم بها سكان المدينة والمنطقة. قلت لها:

تعز مشهورة بتجارها كما يقول كثير من الناس، أما أنا فأرى أن هذه المحافظة أكثر شهرة بكثرة المتعلمين فيها، بمثقفيتها ومناضليها. الكثير من أبناء هذه المنطقة من قادة النضال الوطني ماضياً وحاضراً، عملوا في الحركة الطلابية والعمالية والسياسية شمالاً وجنوباً. لي الكثير من الأصدقاء والرفاق في هذه المنطقة. كم أنا مشتاق إلى أن أعثر على بعضهم غير إنني لا أملك عنوان أحد منهم، ولا أعرف أين تعمل هذه النخبة، وإن كانت تعمل أم أنها قد هاجرت. فالهجرة من السمات الأخرى لهذه المنطقة.

فاجأتني أرينا بقسوة ردها عليّ، قائلة:

أرجوك أن لا تحدثني عن رفاق المناضلين الشرفاء، ألا يكفي ما فعلوه بأنفسهم وبلدهم.

ساد الصمت بيننا لبعض الوقت، غير أنني سارعت إلى تغيير موضوع الحديث وقد اقتربت عقارب الساعة من الموعد الذي خصصه لنا السائق.

هل نتجه نحو المتجر الذي حدده السائق؟

سألت أرينا. قالت:

نعم. حان الوقت.

وصلنا إلى باب المتجر والسائق ينتظرنا بسيارته. لاحظنا أن في ذلك المتجر الكثير من الأدوات الصحية الخاصة بالنظافة بما في ذلك الأوراق الصحية. اقتنينا بعض الأوراق والسوائل المنظفة والمعقمة التي لا شك سنكون بأمس الحاجة إليها في القرية. وعدنا مع صاحب التاكسي إلى الفندق. ورغم اختلاف المكان تمكنا من النوم بما فيه الكفاية لأن تراكم الإرهاق وقلة النوم قد لازمتنا طيلة الأيام والليالي الماضية.

كان الضباب يلفّ صباح تعز غير أننا نهضنا باكراً. وبعد أخذ الحمام وارتداء الثياب اللازمة لرحلة لا تزال طويلة نزلنا لتناول الفطور في مطعم الفندق. وبعد أن فطرنا وزدنا في شراب القهوة، اتجهنا إلى عامل الاستقبال لتسديد فاتورة الطعام والمبيت واستعادة جوازات سفرنا. صعدنا سيارتنا وبدأنا نتدحرج من التل الذي يقع عليه الفندق نحو الطريق العام الذي يقودنا إلى الخط العام خارج المدينة. مررنا بأكثر من نقطة عسكرية وتجاوزنا أكثر من حاجز، والسؤال العام والدائم الذي يتردد:

هل لديكم أسلحة؟ من هي هذه المرأة؟ وماذا بداخل هذا الكرتون؟

قالت أرينا:

أفهم أن يسألوا عن أوراقنا وجنسيتي. لكن لا أفهم لماذا يبحثون عن الأسلحة والصغير والكبير يحملونها؟

قلت: كل نقاط التفتيش وكل الحواجز ليست في واقع الأمر للبحث عن أسلحة. الأسلحة كما ترين يحملها الصغير والكبير، وهي متوفرة في الريف والمدينة. ليست هذه الإجراءات إلا لإرهاب المواطن ونهبه ذهاباً وإياباً أياً كان اتجاهه من الجنوب إلى الشمال أو من الغرب إلى الشرق. أما السلاح فكل مهرب يعرف طريقه وبمعرفة رجال الأمن، وقد تمر من نقاط التفتيش دون أن يعترضها ضابط أو عسكري. يمكن أن يدفع المهرب للضابط بعض الأموال ويمر بدون تفتيش.

نحن الآن في الشمال، ونهب المواطن أحد مظاهر الفساد. على كل حال، لقد مررنا من معظم النقاط والحواجز، وما نحن نبدأ تسلق جبل سماره الشهير بمنعطفاته وصعوبة طريقه التي لا يشغف لها جمال الطبيعة. هذه المنطقة المرتفعة الخلابة يشعر من يمر بها أنه حقاً على مسافة واحدة من الأرض والسماء.

أعجبت أرينا بالمنطقة وجمال طبيعتها، وأنا أشرح لها بعض أسماء القرى البعيدة التي أتذكرها.

قلت لها:

هنا تقع مدينة جبلة التي حكمت منها اليمن الملكة أروى بنت أحمد الصليحي لحوالي ٧٠ عاماً. لم يكن حكمها في التاريخ القديم، أي في ظل الممالك اليمنية الموغلة في القدم، بل في العصر الإسلامي. ألم يكن ذلك رائعاً ونحن نرى ما تتعرض له المرأة في العالم العربي من قمع وإبعاد باسم فتاوى وتفسيرات لا علاقة لمثل الإسلام دخل بها. قالت:

لم أكن أعرف من التاريخ إلا قصة الملكة بلقيس ولقائها مع الملك سليمان.

قلت: عهد بلقيس، على الأرجح، في الفترة بين ٨٠٠ - ١٥٠٠ قبل الميلاد وفقاً لآراء معظم المؤرخين. لكن هناك بعض الحقائق لم يكشفها المؤرخون والباحثون بشكل قاطع. كما أن موقع سبأ قد ذكر وفقاً لبعض الأبحاث في أكثر من منطقة في جزيرة العرب، إضافة إلى أن إخواننا الإثيوبيين يعتقدون أن لديهم من المؤشرات العلمية ما يدل على أن وجود ملكة سبأ كان على أرضهم وأن آخر ملوكهم هيلاسلاسي ينتمي إلى السلالة السبئية التي حكمت ما يعرف اليوم بإثيوبيا. غير أن الاتجاه الأعظم للباحثين والمؤرخين يؤكد أن ملكة سبأ والملكة بلقيس كانتا في اليمن، وهذا ما يفسر قناعة اليمنيين ومعارضتهم لأي تفسير آخر يشكك في تاريخهم، وخاصة حول هذه المسألة التي يعتبرونها محسومة وغير قابلة للنقاش. قالت:

بماذا اتسم حكم أول امرأة في العهد الإسلامي، أروى بنت أحمد؟

يقال إن الملكة أروى بنت أحمد تولت الحكم وقررت نقل العاصمة من صنعاء إلى جبلة أو ذي جبلة، وفقاً لبعض الروايات. أما حكمها فقد تميز بحسن الإدارة والتنظيم، لحسن اختيار من اعتمدت عليهم في تسيير شؤون الحكم وإدارة المناطق. وكانت تتمتع بالعلم والمعرفة، وبعد النظر، فالتفت حولها الكثير من الرجال والنساء، واستمرت في الحكم حتى موتها عام ١١٣٨ عن عمر يناهز التسعين عاماً.

لم أسمع عن شعوب وبلدان تتراجع عن ماضيها البعيد بما فيه من تسامح وقيم إيجابية إلا شعوبكم وبلدانكم الإسلامية. إنكم تندهورون نحو هاوية تشبه تدحرجنا في هذا الطريق نحو أسفل هذا الجبل الشاهق.

للأسف ما تقولين صحيح. إن حاضرتنا أسوأ من ماضيها، أما مستقبلنا فتشير معظم المعطيات إلى أنه سيكون أسوأ من ماضيها وحاضرتنا معاً.

ونحن نواصل النزول، تحدثنا عن مدينة إب الجميلة، وبخاصة الحي القديم الذي يتميز بأسواره المرتفعة وأبوابه الخمسة، ومدارسها القديمة، وجامعها الكبير الذي يُسمى بالمسجد الخطابي نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب. وهنا توقفت عن الحديث. لم أقل لأرينا إن لي في هذه المدينة أصدقاء ورفاقاً ومناضلين أعتز بهم ماضياً وحاضراً. لم أقل ذلك لكي لا تقمعتني مثلما قمعتني في تعز عندما حدثتها

عن الرفاق والمناضلين. نزلنا من سماره بسلام وواصلنا على طريق صاعد هابط. مررنا بسهل قابل للزراعة. ونحن نواصل طريقنا في ذلك السهل إذ بشبح نقطة تفتيش يلوح في الأفق ويقع على مفترق ثلاث طرق. توقفنا مثل غيرنا أمام الحاجز، لم يطلب العساكر أية أوراق ثبوتية من السيارات التي أمامنا. أما نحن فقد طلبوا أن نوقف السيارة على جانب الطريق. فتشوا كل ما نحمل من ثياب وأدوات. ومن جديد فتشوا الكرتون المليء بالأدوية، وزيادة على ذلك حجزوا جوازاتنا لأكثر من ساعة.

مرّ الكثير من السيارات من دون توقف. وبعد أن تجاوزنا ساعة من الانتظار غير المبرر، وصل شخص يقود سيارته النظيفة بنفسه، تبدو عليه الأناقة في هيئته وثيابه، كما لو كان من كوكب غير كوكب بقية المسافرين. ألقى نظرة علينا ولاحظ أن هناك امرأة أجنبية بجانبنا داخل سيارتنا المتهاكلة. سأل العساكر ونحن نسرع المحادثة عن بُعد:

لماذا توقفون هذا الرجل وهذه المرأة الأجنبية؟ ألا تخجلون من ذلك؟

أجابه العسكري:

لا زلنا نتأكد من أوراقهم.

أخذ الجوازات من يد العسكري وقرأ لهم محتواها قائلاً:

هذا يماني وهذه زوجته الأجنبية، لماذا تأخرونهم وتعطون أسوأ الصور عن بلدكم ومهنتكم؟

تلثم العسكر ولم يجب أي منهم. اتجه ذلك الرجل الأنيق نحو سيارتنا وبعد أن ألقى علينا التحية قال:

يبدو أن هؤلاء العساكر يريدون مبلغاً من المال لشراء القات.

قلت:

لكن هذه رشوة ونهب أياً كان حجم المبلغ المطلوب. لن أعطيهم حتى ريالاً واحداً. هذا لا يجوز. نظر إلينا ذلك الرجل بشيء من الغرابة وأضاف:

يبدو أنكم تعيشون في عالم غير عالمنا وتسلكون طرقاً لا تعرفون ما يجري فيها.

ثم عاد بخطوات سريعة نحو جنود الحاجز والنقطة ورأيت يخرج من جيبه بعض المال ويسلمه للعسكري، ثم انتزع بعنف من يد العسكري جوازاتنا بثقة وكبرياء قلّ ما نلاحظها. عاد إلينا وسلمنا الجوازات قائلاً:

كانوا يريدون بعض النقود وقد أعطيتهم وها هي جوازاتكم. توكّلوا على الله.

القرية في الليل تجنباً لخروج الأطفال ومشاهدة الكبار والصغار لكل من وصل إلى القرية فما بالك عندما يرون امرأة أجنبية شقراء.

هذا لا يزعجني. أريد أن أصل في وضوح النهار لأرى قريتك الشهيرة، أما الأطفال فأهلاً وسهلاً بهم، سوف يروني عاجلاً أم آجلاً، اليوم أو الغد.

أسرعت بالسيارة ومررنا من حاجز جديد لا معنى له مثل كل الحواجز التي مررنا بها. وصلنا إلى القرية وبمعجزة تمكنت سيارتنا المتهالكة من قطع الطريق الترابي وأن تصل بنا إلى باب المنزل الذي لم يعد في أعلى جبل قرن منصور بل في أسفله. وكما كان متوقعاً، استقبلنا الكثير من الأطفال، تلمس بعضهم يدي أرينا ومد أصغرهم يده إلى شعرها لغرابة لونه بالنسبة لذلك الطفل البريء. لم تتضايق أرينا من شيء بل ظلت تبتسم وتحيي الجميع.

كانت أختي غادة في استقبالنا على مدخل المنزل. لا أعرف من الذي سبق في احتضان الآخر، فهي تعرف أنني أحبها مثل معرفتي أنها تشاطرنني ذلك الحب الأخوي وأكثر.

تأثرت أرينا من ذلك العناق الطويل بين أخ وأخته. ذرفت دموعاً حاولت بسرعة أن تخفيها أمام نظرات أطفال القرية وبعض الكبار.

دخلنا مباشرة إلى ديوان المنزل، ففيه يستقبل الكبار والصغار الأهل والأقرباء. رائحة البخور تعج في الديوان وفي المنزل بشكل عام. وبدأ أهل القرية يتوافدون على المنزل للتحية والترحيب. سألت غادة أرينا إن كانت تفضل أن تواصل الجلسة في الديوان أم أنها بحاجة إلى بعض الراحة في غرفة أخرى. عرفت أرينا أن غادة تحاول أن تجنبها الجلوس في الديوان الذي بدأ الرجال يتوافدون عليه كما هي العادة في القرى والأرياف. اتجهت أرينا صحبة غادة إلى غرفة مجاورة للديوان، أما نحن فواصلنا شرب القهوة والشاي، الفنجان تلو الآخر. سألت عن خالي محسن، ذلك العجوز صاحب اللحية البيضاء المسترسله والعصا التي لا تفارق يده. قيل لي إنه في حقل بعيد لكنه قد يصل بين الحين والآخر. وما هي إلا لحظات وإذا بخالي يطل على الجميع. نهضت وقبلته على خديه وجبينه واحتضنني إلى صدره. شعرت أن حرارة جسمه وحنانه أعطاني من القوة والحرارة ما كنت في أشد الحاجة إليه.

جلس بجانبه وكعادته وبطيئته، سألتني أمام الجميع:



هذا الطريق العام إذا واصلناه يقودنا إلى صنعاء. إذا، لا بد أن نغادره ونتجه جنوب شرق. فقريتي لا تبعد عن هنا إلا حوالي خمسين كيلومتراً.

أخذنا من أحد المتاجر بعض الفواكه وبدأنا نأكل شيئاً منها وواصلنا طريقنا نحو القرية. لاحظت أرينا أنني قد خففت السرعة بشكل ملحوظ رغم أن الطريق سالكة وشبه خالية من السيارات والشاحنات. قالت:

لماذا خففت السرعة والطريق سالكة؟ لا أخفي عليك أنني عادة أفضل أن أصل

بالنفس والكبرياء ما يجعلني أضع حوله أكثر من علامة استفهام. من هو؟ ماذا يعمل؟ أما نظرتة نحو حكم العساكر ففيها من الوضوح والصراحة ما يغني عن طرح أي سؤال.

قالت أرينا: ربما عرفك بعد أن تصفح جوازك أمام العساكر.

ربما. كل شيء ممكن لكنه رجل متميز لا يخشى العساكر ولا حكمهم.

وبينما نحن نتحدث عن كل ذلك إذا بنا على أطراف مدينة ذمار. قلت لأرينا:

شعرت بخجل أمام ذلك الرجل الذي ساعدنا دون أن نعرفه، فخرجت من سيارتي لكي أعطيه المبلغ الذي دفعه للعساكر. رفض أن يتسلم أي ريال قائلاً:

هذا مستحيل. وأمام إصراره القاطع تقدمت إليه بالشكر والعرفان ثم سألته: من أين الأخ؟

من إحدى هذه القرى التي ربما شاهدتموها عن بعد. إنها لا تبعد كثيراً عن جبلة. كنت أحدث زوجتي توأ عن الملكة أروى بنت أحمد الصليحي وحكمها لليمن من جبلة حوالي سبعين عاماً. والآن قل لزوجتك إن العساكر سيحكموننا أكثر من مائة وسبعين عام.

لماذا تحديد مائة وسبعين عاماً، لماذا ليس أقل أو أكثر؟

الاحتمال الأكثر أرجح. أما أقل فمستحيل. لقد قالها لنا ذات يوم آخر حاكم مدني في اليمن، القاضي عبد الرحمن الأرياني، ”إذا استولى العساكر على الحكم يوماً فلن يتركوه في أي يوم“.

قلت: هل أنت من بيت الأرياني؟ اتجه نحو سيارته النظيفة المرتفعة وهو يقول:

لا إرياني ولا برياني، مع السلامة. انطلق بسيارته وتبعناه بسيارتنا المتهالكة على نفس الخط حتى غاب عن أنظارنا ولم نعد نرى له أي أثر. رددت أكثر من مرة وأنا أوصل الطريق ”لا إرياني ولا برياني“ فسألتني زوجتي: ماذا تعني بذلك؟ قلت:

هذا ما قاله الرجل الذي أنقذنا من قبضة العساكر ومن حاجز التفتيش. إريان قرية لا تبعد كثيراً عن جبلة، ومعظم من يسكنها يدعون أريانيه أو إرياني بالمفرد، لكن لا أعرف لماذا أضاف هذا الرجل كلمة برياني.

وما هو البرياني؟ إنها وجبة عراقية من الرز أو ”التمن“ وفقاً للتسمية العراقية، وتحتوي على اللحم وكثير من البهارات. إنها حقاً من الوجبات اللذيذة. إذاً لعل هذا الرجل قد عاش في العراق وتناول هذه الوجبة.

ربما. غير أن فيه من السمات والثقة

ألم أقل لك إن ثورتكم تأكل أبناءها؟ ألم أقل لكم إنكم تفعلون بأنفسكم ما عجز الغير عن فعله بكم؟

همست في أذن خالي العجوز:

ليس لدي أجوبة على كل أسئلتك. إنها أيضاً أسئلة أطرحها على نفسي، ولكن بيننا حديث خلال الأيام القادمة.

كم ستطول إقامتك هذه المرة في القرية؟ لا أعرف بالتحديد. لعدة أيام على الأرجح. ثم همست في أذنه أن يتبعني إلى الغرفة المجاورة لأقدم له زوجتي. نهض بلحيته البيضاء الجميلة ولم ينس أن يأخذ العصا بيده. دخلنا إلى أريتنا وغادة، قلت لأريتنا: هذا خالي الذي حدثتك عنه مراراً.

نهضت لتحيته بكل إجلال واحترام. أما خالي فخطبها قائلاً:

أهلاً وسهلاً بك في بيتك وبين أهلك. هل تعرفين اللغة العربية؟

قالت:

نعم ولكن ليس مثلكم.

قال:

نحن نعرف اللغة الدارجة أما اللغة العربية الفصحى فلا يعرفها أحد، حتى إمام الجامع. قالت:

لكن غادة عندما تتكلم أعرف كل كلمة تقولها.

قال الخال العجوز:

غادة متعلمة أما نحن فأميون لا نقرأ ولا نكتب.

ثم وجّه خالي كلامه إلى غادة قائلاً لها:

أريدك أن تهتمي بزوجة أخيك. إنها بصحبتك وأنا معتمد عليك.

هزّت غادة رأسها بالموافقة تطمئن ثم عدت مع خالي إلى مجلس الرجال الذي استمر التوافد عليه حتى ساعة متأخرة من الليل. كنت بين الحين والآخر أذهب إلى الحجرة المجاورة لكي أطمئن إلى زوجتي الغريبة، فأجدها تضحك وتمرح مع الأطفال والفتيات الذين بدأ معظمهم يعود إلى منزله بعد أن حل الظلام الدامس. حلّ وقت النوم فخرج من تبقى من السّمّار واتجهوا إلى منازلهم.

أويينا إلى غرفة النوم التي كانت غادة قد أعدتها وبخّرتها وعطّرتها. وأدركنا النوم بسرعة بسبب الرحلة الطويلة والإرهاق المتراكم. غير أن نباح كلاب القرية أيقظني فجراً، إذ نشبت بينها معركة خاطفة ربما بسبب عظمة أو بسبب محاولة كلب نيل رضا كلبة هاتجة. إلا أن هذه

المعركة الخاطفة بين الكلاب سرعان ما توقفت وساد الصمت والهدوء وعدت لمواصلة النوم. أما أريتنا فقد كان نومها عميقاً تلك الليلة، ولهذا لم تسمع شيئاً عن عراك الكلاب. قلت وأنا أحاول استعادة نومي بعد معركة الكلاب الخاطفة التي ربما انتهت بدون أضرار: يا له من فرق بين معركة الكلاب ومعركة الرفاق التي تواصلت أياماً وليالي، واستخدمت فيها كل أسلحة العصر المتطورة والفتاكة. صحنونا جميعاً في المنزل حوالي الساعة السابعة صباحاً. وبعد أن أخذنا الحمام على الطريقة البدائية وارتدينا ثيابنا، ذهبنا إلى الديوان الذي كان قد سبقنا إليه الخال محسن والأخت غادة. تناولنا الفطور بعد أن فتحنا نوافذ الديوان المطلّة على الوادي لنرى صباح يوم مشمس جميل. قلت لأريتنا:

بعد قليل وقبل أن ترتفع حرارة الشمس سأكون لديك لزيارة هذا الوادي الذي ترينه وأحدثك عن ذكريات طفولتي الجميلة التي يحتضنها كل حقل وأكثر من موقع في هذا الوادي.

وقبل أن نخرج في اتجاه الوادي طرق الباب أول مريض، سارعت غادة لفتح الباب، فدخل ذلك الرجل الذي يناهز السبعين عاماً. بدأ يشتكي من الأمراض المزمنة التي يعاني منها في كل جسده حسب قوله، إلا أن ما يؤلمه أكثر ركبتاه ومفاصله. فحصته وقست ضغطه ونبضات قلبه. قلت له إنها نبضات قلب شاب، فنظر بفخر وارتياح نحو خالي محسن وقال له:

هل تسمع يا حاج محسن ما قاله الدكتور؟ قلب شاب؟ بشرك الله بوجه النبي يا دكتور.

كان هذا الرجل المسن يعاني من أمراض روماتيزم مزمنة، فأعطيته بعض الأدوية المهدئة وغادرنا سعيداً فرحاً لأنه سمع أن قلبه لا يزال ينبض كقلب شاب.

طلبت من أريتنا قبل أن يصل مرضى آخرون وترتفع حرارة الشمس أن نتجه نحو الوادي الذي اقتلعت كل أشجاره المثمرة وحلّت محلها شجرة القات الخبيثة.

بدأت أشرح لها ما كان يُزرع في هذا الوادي أيام طفولتي قائلاً لها:

هنا في هذا الحقل كان لنا كرم يعطي أجود أنواع العنب الأبيض والأسود. أما في هذا الحقل فقد كان لوالدي شجرة تين كبيرة يتغلغل جذعها الكبير في أعماق الأرض أما أغصانها فتحلّق إلى ارتفاع شاق ولم تكن نتمكن من جني تينها من الأغصان المرتفعة إلا بسلم خاص. وهنا كان لنا عدد من أشجار الرمان،

وكانت والدي تملك عدداً من أشجار الخوخ وحتى التين الشوكي الذي نسميه هنا ”بلس تركي“ كان في أكثر من موقع وعرض كل جبل وتلّ. أما ما تبقى من هذه القلعة الصغيرة والتي نسميها ”نوبة“ فقد كنا نحرس منها الحقول وبخاصة أثناء موسم قطف العنب والتين وبقية أنواع الفواكه. وقد كنا نحرسها ليلاً ونهاراً.

ولماذا ليلاً ونهاراً؟ كنا في النهار نصدّ الطيور والعصافير عن أكل العنب والعبث بالتين وبقية أنواع الفواكه. أما ليلاً فنحرسها لكيلا يتسلل إليها سارق ويجني ثمارها.

وهل كانت هناك سرقات حقاً؟

نعم. الجوع والحاجة يدفعان البعض إلى مثل هذه الأعمال لكنها وخيمة العواقب، وبخاصة إذا ما عُرف السارق. ولا زلت أتذكر أن أحد رجال قريتنا كان متخصصاً في اقتفاء أثر السارق، حيث يتتبع آثار خطاهم سواء كان السارق حافياً أم منتعلاً، من الحقل الذي تعرّض للسرقة إلى المنزل الذي عاد إليه ذلك السارق بغنيمته، أكان من قريتنا أم من القرى المجاورة.

هنا في هذا الحوض، أو ”الماجل“ كما نسميه، تعلمت السباحة أثناء موسم الأمطار والسيول، ومن هذه البئر التي جفّت اليوم مياهاها كانت نساء القرية يجلبن الماء على رؤوسهن إلى المنازل. لم يبق في هذه الحقول كما ترين للأسف شجرة مثمرة، لأن شجرة القات قد حلت محل أنواع الزراعة الأخرى. وجفت المياه، وها هم المزارعون يبحثون عن المياه في مناطق بعيدة وينقلونها على سيارات كبيرة ليسقوا شجرة القات.

قالت إنها حقاً ذكريات جميلة، غير أن حياة الناس كما أرى صعبة وقاسية.

نعم. إنهم يكافحون من أجل البقاء، وتتسم حياتهم بالبساطة والصدق والتضامن، وهي سمات فقدتها مجتمع المدينة.

بعد هذه الرحلة الجميلة عدنا من الوادي إلى المنزل. أحضرت لنا غادة قهوة برائحة الهيل والزنجبيل كما لو كانت هي الأخرى تريد أن تعيدنا إلى ذكريات القرية في أيامها الماضية. طرق الباب شخص وصل من القرية المجاورة على ظهر حماره ومعه طفل عمره حوالي خمس سنين وطفلة أصغر منه بسنة. دخل الرجل ودخل معه الأطفال، وقدمت لهم غادة القهوة والعصير للأطفال وسألتهم إن كانوا يرغبون في تناول شيء من الأكل. شكرها الرجل وبدأ يشرح ما يعاني منه طفلاه. فقد كان الأب قبل أربعة أيام

في المدينة وعند عودته إلى قريته جلب لهما علبة فواكه شرباً مياهاها وأكلا الفاكهة، وحين حلّ الليل أصيبا بالإسهال وبآلام في المعدة لا يزالان يعانيان منها. فحصت الطفلين ووجدتهما جسدين يعانين من نقص التغذية ومن وضع صحي عام في غاية السوء. واتضح لي بسهولة أن الطفلين ضحية تسمم غذائي بسبب الفاكهة المعلبة التي جلبها أبوهما من المدينة بعد أن مضى على تاريخ صلاحيتها للاستهلاك سنوات. اتجهت إلى الكرتون أو الصيدلية الكوبية، وعثرت على بعض الأدوية المضادة لمثل هذه الحالات، وأضفت أيضاً بعض الفيتامينات التي قد تعين الطفلين لبعض الوقت في تجاوز محتنتهما وهزاله جسديهما.

كان وقت الغداء قد حان فألححنا على أن يتناول الرجل طعام الغداء معنا، ووافق بعد إلحاح شديد. وحين انتهينا من تناول الطعام همّ الرجل بالرحيل، لكنه سألني كم قيمة العلاج الذي يجب عليه دفعه. قلت:

لن تدفع شيئاً لأنت ولا غيرك، اهتم بصحة أطفالك وهذا أهم شيء.

ركب حماره وساعدنا الأطفال على أخذ وضعهم في حضنه على ظهر الحمارة. غادرنا الرجل نحو قريته المجاورة وهو يدعولي.

وهكذا أصبح ديواننا طيلة عشرة أيام متواصلة عيادة لمعالجة الكبار والصغار، الرجال والنساء، من نعرفه ومن لا نعرفه بعد أن أخبر الناس بعضهم بعضاً عن الطبيب الذي يعالج كل من قدم إليه مجاناً، وعن زوجته الأجنبية التي اعتبروها من كبار أخصائيي أمراض النساء، فتحولت رغماً عنها من رسامة إلى طبيبة تساعدني عندما أطلب منها أن تساعدني في التعامل مع لمس جسد المرأة المريضة، أو النظر إلى موضع الألم الذي تشكو منه، تساعدنا غادة في كل ذلك، ثم يخبرني لكي أعطي العلاج الذي أعتقد أنه مناسب للحالة المرضية. وبهذا الأسلوب الحذر في فحص نساء القرية تجنبت التفسيرات الخاطئة التي لا معنى لها.

عشرة أيام كانت كافية لتفريغ كل محتويات ذلك الكرتون الصيدلية الذي تكرّم به الدكتور كارلوس رودريغيز، عضو البعثة الطبية الكوبية في عدن. أمراض مزمنة، ملاريا في كل قرية، سوء تغذية عند الصغار والكبار، أجسام هزيلة ينخر فيها أكثر من مرض وعلّة، ضغط دم مرتفع أو منخفض دون أن يعرف من يعاني منه أنه مصاب به، أميبيا وديدان في أمعاء معظم

الناس وخاصة الأطفال. أشخاص يعيشون بكلية واحدة دون أن يعرفوا أن الأخرى لم تعد صالحة. أما الأمراض التناسلية فمنتشرة بسبب سوء النظافة وقلة استخدام المياه. وعادة ما يخفي الرجال والنساء أمراضهم الجنسية. بل من المستحيل على كثير من النساء أن يكشفن أعضاءهن التناسلية حتى لأزواجهن. وقد ذكرني ذلك الواقع بما قاله لي صديق زار باريس وقضى بعض الوقت في حديقة لكسمبورغ القريبة من الحي اللاتيني. شاهد الكثير من الرجال والنساء يعرضون أجسادهم لأشعة الشمس النادرة، ولاحظ أن كل زوج يقبل زوجته، والصديق يداعب صديقه ويضع يده في أكثر من موضع من جسدها. فعجب لما شاهد وغادر الحديقة وهو يقول إن هؤلاء القوم قد من الله عليهم بالحرية، فما يعمله الصديق مع صديقه من مداعبة ولمس لكل أعضاء جسدها وفي وضع النهار، يستحيل أن عمله مع زوجتي في غرفة النوم حتى بعد أن نطفئ كل الأنوار في الغرفة.

لاحظت أريانا ونحن في يومنا العاشر في القرية أن لا مجال لبقائنا أكثر، لأن الأدوية انتهت، ومعالجة الناس بالنصح وإعطاء التعليمات محدودة الجدوى. إضافة إلى أن عشرة أيام قضتها زوجتي في قريتي البسيطة تعتبر كافية على الرغم من طيبة الناس وحننا لفراق غادة وخالي محسن. بدأنا نستعد للذهاب إلى صنعاء كما كان مقرراً لرحلتنا. أخبرت أختي غادة وخالي محسن بأن وقت الرحيل قد حان، وأن عودتنا ربما تكون قريبة، خاصة وأنا لا أعرف ما نحن قادمون عليه. قالوا كنا نفضل أن تبقى لفترة أطول ولكننا على أية حال سعداء لأن هذه أول مرة تمضي مثل هذه المدة في القرية، وأول مرة أيضاً تأتي مع زوجتك. ثم أخذني خالي على انفراد ليقول:

أنا أعرف لماذا لم تجب عن سؤالي عندما سألتك أول يوم لوصولك، ماذا عملتم ببلادكم وشعبكم؟ أعتقد أن جراحك لا تزال عميقة، غير أنك أحسنت صنعاً عندما رفضت أن تكون طرفاً في ذلك الصراع الدامي.

لكنهم يا خالي يعتبرونني اليوم منحرفاً. هم المنحرفون الذين قضوا على كل شيء مقابل لا شيء.

وأنا أتابع هذا الحديث مع خالي الأمي الذي يتابع كل ما يجري في الشمال والجنوب، انفردت أريانا بغادة في حديث طويل لا أعرف محتواه، إلا أن أريانا أخبرتني ونحن في طريقنا نحو نمار في اتجاه صنعاء أنها قالت لغادة



أمام المتاجر وفي أركان الطرق، بمعاولهم ومجارفهم، بمفارسهم وأدوات عملهم. إذا توقف صاحب عمل للبحث عن عامل أو اثنين، هجم عليه عشرات العمال يعارضون قوة عملهم. إنه منظر غريب يرى من خلاله أي زائر أو مراقب إلى أي حد وصل إليه هذا البلد من بؤس وبطالة وحرمان قد تؤدي إلى مواجهات اجتماعية وسياسية واقتصادية عاجلاً أو آجلاً. لم أعد أعرف صنعاء التي مررت بها صغيراً. توقفت معرفتي عند صنعاء القديمة، بستان السلطان وباب السبح وحي البونية والصيد، وقاع اليهود وشارع جمال عبد الناصر وشارع الشهيد علي عبد المغني. هذه الأحياء أصبحت محاصرة بأحياء ومدن جديدة لا يمكن أن ترى أطرافها.

سألت أحد المارين:

أريد الذهاب إلى فندق في حده كان قد أخبرني عنه أحد أعضاء لجان الوحدة التي لم توحد أي شيء.

أرشدني إلى أن أتجه شمالاً ثم جنوباً حتى أصل أسفل الجبل. وأضاف:

اتجه نحوه. لا توجد إلا طريق واحدة ستوصلك إلى الفندق الذي يقع على يمينك وأنت تتجه نحو قرية حده.

اتجهنا نحو الفندق وشاهدنا على الطريق ما يسمى بالحي السياسي الذي حوّل بعض الناس تسميته تكهماً إلى: حي المناضلين أو حي المخلصين. قصور وفلل وقلاع ومبانٍ بأسوار شاهقة تتساءل كيف لمن يسكن تلك القلاع والقصور أن يؤمن صيانتها؟ ومن أين أتت هذه الثروة الفاحشة في بلد يعد دولياً في قائمة أكث الدول فقراً في العالم.

تذكرت صنعاء القديمة، وأسواقها القديمة المتخصصة ومنها سوق الملح، وكذلك بقية الأحياء والشوارع التي كنت أعرفها. شاهدت وأنا أمر بأكثر من شارع وحي قبل أن أصل إلى حده بعض العمارات الإسمنتية البشعة التي نبتت هنا وهناك وشوهت مدينة كانت تفخر بطابعها الجميل ومعمارها المميز. أما في منطقة حده فهي مثل الحي السياسي إن لم تتجاوزوه، قلاع وقصور وأسوار تعلوها أسلاك شائكة، وحصون للحراسة والمراقبة، ومواقع مستحثة وخارجة عن التخطيط، وقد يتغير اتجاه الشارع أو يتوقف لأن صاحب القصر أو الفيلا قد ابتلع الشارع العام وما جاوره بمباركة البلدية وتعميد الحكومة. سألتني أريانا:

لماذا هذه الأسوار العالية والأسلاك الشائكة التي تخفي الفيلاً والقصر وتشوه المنظر؟

تجاوزنا مَعْبَر التي تقع في حقل فسيح رأس الهضبة، لاحظت أريانا أن المياه متوفرة فيه نسبياً ويمكن أن تزرع فيه أشياء كثيرة. علقت على ملاحظتها بالقول إن هذه المنطقة أفضل من غيرها من حيث توفر المياه، لكن البلد كله في كف عفريت. إنه من أوائل بلدان العالم المهدة بنضوب المياه، والناس هنا وفي المقدمة الحكومة لا يعطون لهذه المسألة الخطيرة حقها من الاهتمام والامكانيات والتخطيط. بدأنا نتسلق الجبل على نَقِيل يَسْلِح بخوف شديد، إذ حاصرتنا شاحنات نقل الحجار والأتربة من الأمام والخلف. كان أكثر ما يقلقنا أن الشاحنة التي أمامنا ترجع أحياناً إلى الخلف وقد تسحقنا في أية لحظة. توقفنا في منعطف بالكاد اتسع لسيارتنا، وأقسمنا أن لا نواصل الصعود إلا عندما تصل تلك الشاحنة القاتلة إلى رأس الجبل.

تأخرنا كثيراً لأن شاحنات أخرى تتبعها. وعندما شعرنا أن الخطر قد زال بعض الشيء واصلنا الصعود بسيارتنا المتهاككة التي زاد إعجابي بها لصعودها ذلك الجبل حتى قمته دون توقف أو تعطل. الحاجز العسكري من جديد في انتظارنا، والأسئلة التي تعودنا عليها إلا السؤال الخاص بكرتون الأدوية الذي استنفد. واصلنا سيرنا نحو صنعاء ومررنا بأكثر من نقطة عسكرية. سألتنا عن اسم ذلك الشارع الطويل الذي يقودنا إلى قلب المدينة، فقيل لنا هذا شارع تعز. أكثر ما فاجأنا فيه هو كثرة الباحثين عن العمل. نراهم على أرصفة الشارع،

إنه لا يوجد لها أي مستقبل في القرية النائية. فأجابتها عادة إن خالنا كبير في السن ويصعب عليه القيام بكل شيء إذا غادرت القرية. قالت أريانا:

خالك يتمتع بصحة جيدة، أما الحقول فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، القات يسبب أضراراً للإنسان هو في غنى عنها. ثم إنكم تنفقون أموالاً في جلب المياه على سيارات قد يتجاوز أحياناً عوائد هذه الشجرة.

وبعد نقاش طويل وافقت غادة على مضض أن تلتحق بنا عندما نستقر في أي مدينة أو في أي بلد لنبدأ الثلاثة معاً حياة جديدة. غادرنا قرن منصور ورافقنا كالعادة حشد من الأطفال وعدد من الرجال والمرضى ممن عالجتهم. وبعد تجاوز الخط الترابي، دخلنا الطريق المسفلت المليء بالحفر والمطبات. وما هي إلا ساعة حتى كنا على أطراف مدينة نمار. قلت لأريانا:

أما الآن فسيكون اتجاهنا شمالاً على هذا الطريق الذي سيقدنا إلى صنعاء. وقبل أن نصل إلى مَعْبَر أشرت لأريانا إلى المناطق التي تضررت بالزلازل أكثر من مرة والتي لا يزال أهلها يعانون من إهمال الدولة لمشاكلهم حتى الآن. سألت:

وهل ساعدهم المجتمع الدولي؟

نعم كان هناك مساعدة، لكن حوالي ربعها وصل إلى المتضررين أما الأرباع الثلاثة الأخرى فذهبت إلى جيوب المسؤولين والمتنفذين. هذه قاعدة عامة أكانت المنطقة المتضررة هنا أم هناك، في شرق البلاد أم في غربها.

ربما يخشى أصحابها من هجوم أولئك العمال الذين يعرضون أجسادهم للشمس الحارقة في شوارع صنعاء، وهم يحملون معاولهم ومطارقهم وأدواتهم بحثاً عن عمل. ربما أيضاً يخافون من جيش العاطلين من العمل والذي يتكون من نصف السكان. وربما يخشون من أولئك الذين يبحثون عن قوت يومي ويتسولون أمام إشارات المرور ومفارق الطرق، أو ربما يخافون من تمرد الجنود إذا تأخرت رواتبهم. غير أن هذه الأسوار العالية والقلاع المحصنة والتلال المحتلة والأسلاك الشائكة لم تغد يوماً ولم تصمد حتى ساعات قليلة، عندما تنهض الشعوب المحرومة الجائعة، والتاريخ مليء بالأمثلة والعبر عربياً ودولياً.

نعم لقد تغيرت المدينة التي كنت أعرفها وأحبها بأحيائها وأزقتها، ببساتينها ونمط معمارها، وهي التي وصفها مدير عام سابق لمنظمة اليونيسكو ذات يوم بأنها لؤلؤة الجزيرة والخليج.

وصلنا إلى الفندق، وأوقفنا سيارتنا الشهيرة على مدخله، ونزلنا نسأل إذا كان بالفندق غرفة فارغة لعدة أيام فوجدناه كله فارغاً. كان فيه خمسة نزلاء أجنب زهبوا قبل يومين في رحلة إلى خارج صنعاء ولم يعودوا. سألت:

لماذا لم يعودوا؟

قال موظف الاستقبال:

خطفتهم إحدى القبائل التي تتصارع مع السلطة وتطالب بحقوقها من ثروة البلد، وإطلاق سراح أبنائها المحتجزين في سجون صنعاء. قلت له:

بشرك الله بوجه النبي على هذا الخبر وعلى

هذا الاستقبال!

لا تقلق، أنا على قناعة بأنه لن يحدث لهؤلاء الأبرياء أي مكروه، فهذا ليس أول اختطاف للأجانب ولن يكون الأخير. لكن الأضرار التي تصيب الفنادق والسياحة وسمعة البلد كبيرة. فكما ترى، لا يوجد في الفندق حتى نزيل واحد. وعلى كل حال، أهلاً وسهلاً بكم، سوف نكرمكم بالنزول في "جناح" بسعر الغرفة.

طلب جوازاتنا واحتفظ بها كالعادة، ثم قادنا إلى النزل المكون من صالون وغرفة نوم. كان الجناح في مظهره جيداً، غير أن النازل يسمع ما يجري في الغرف المجاورة ويسمعون ما يدور في غرفته من حديث أو حركات بكل وضوح. قلت في نفسي "إن فندقاً بهذا الشكل يوفر على أجهزة الأمن وضع أجهزة تنصت داخل الغرفة ما دام لها أن تسمع كل شيء من

أي غرفة مجاورة".

تناولنا طعام العشاء على المسبح الذي يعد مع الأشجار المحيطة به أجمل ما في الفندق. عملنا الشيء نفسه عند تناول طعام الفطور. وقد وفر لنا العمال كل ما في استطاعتهم توفيره بمبادرة شكرتهم عليها. وفيما كنا نتناول طعام الفطور أطل علينا أحد العاملين بالفندق، بمظهره الأنيق وهندامه المرتب بعناية، وقدم لنا نفسه بالقول إن اسمه سعيد، أحد العمال والمسؤول عن نقابة عمال الفندق، مؤكداً لنا استعداداه لأن يوفر لنا أي شيء نرغب فيه. شكرته على مبادرته، وأثنت على العمل النقابي وأهميته في الدفاع عن حقوق العمال ومصالحهم ورفع أجورهم والمحافظة على عملهم. قال:

القديمة.

هل لي أن أساعدكم في أي شيء؟

لا أخفي عليك إنني أبحث عن بعض زملاء الدراسة الذين أتابع أخبارهم بشكل دائم، غير أنني لا أعرف إن كانوا في صنعاء أم أن بعضهم قد هاجر إلى بلدان أخرى. هل يمكن أن تعطيني أسماء بعض من تبحث عنهم؟

أبحث مثلاً عن الدكتور عصام، وهو طبيب مشهور متزوج من طبيبة روسية، وعن الصحفي والكاتب المشهور محمود، وعن المثقف والسياسي طاهر، وعن المحامي أحمد والمهندس توفيق. وغيرهم من الزملاء الذين أرغب في اللقاء بهم ومعرفة أحوالهم بعد أن باعدت بيننا السنون



الطويلة والممارسات السياسية القمعية.

أعدك أنك لن تعود من زيارتك لصنعاء القديمة إلا ولدي بعض المعلومات. أعتقد أن الكثير ممن أشرت إليهم يسكنون في مدينة حده السكنية التي لا تبعد كثيراً عن هذا الفندق. ويأتي بعضهم إلى هنا للتضامن معنا عندما نضرب عن العمل أحياناً للمطالبة بتحسين أوضاعنا. بل إن معظم سكان هذه المدينة يتضامنون مع الحركة النقابية بشكل عام.

ولماذا يسكن معظم هؤلاء في هذه المدينة السكنية؟

كانت هذه المدينة بمثابة إنقاذ لهؤلاء المثقفين والمهنيين والكتاب والموظفين الصغار. إنه المشروع السكني اليتيم الذي أنجزه بنك الإسكان بفضل تفاني شخصية وطنية

كبيرة عندما كان رئيساً لهذا البنك. وقد حرص هذا الرجل منذ بداية المشروع السكني على أن يعطي الأولوية لهؤلاء المحتاجين والمتخرجين بأقساط طويلة الأمد. ولولا هذا المشروع لكان معظم من يسكن هذه المدينة حالياً مشردين أو مهاجرين، أو عادوا إلى قراهم، وبخاصة مع ارتفاع الأسعار الذي لا يتناسب وقدرة مثل هؤلاء المواطنين.

وواصل حديثه بصوت خافت ليقول:

حتى أجهزة الأمن لم تعترض على إسكان هؤلاء المشاغبين، كما تسميهم، في هذه المدينة الصغيرة، لأنها عندما كانت تلاحقهم وتعتقلهم لا تعثر على بعضهم لأنهم بدون سكن محدد العنوان والبعض الآخر مشتتون في أكثر من حي وأكثر من غرفة أو كوخ. وكان ذلك يعرف بعض الشيء ملاحقة أجهزة الأمن لمن كانت أسماؤهم مسجلة في قوائمها. أما اليوم فمعظم هؤلاء في وحدة سكنية صغيرة يمكن لأجهزة الأمن أن تعتقلهم خلال ساعة أو ساعتين، وأن تراقب حيوهم بأقل من سبعة مخبرين فقط.

شكرت هذا النقابي على معلوماته القيمة وعلى الجهد الذي وعد ببذله للعثور على بعض أصدقائي واتجهنا بالسيارة إلى باب اليمن، غير أنه تبعنا مقتحماً أن لا نأخذ السيارة بل نذهب بسيارة تكسي، فهذا أسرع وأضمن، وبخاصة عندما أدرك أنني لا أعرف شوارع صنعاء الجديدة. استمعنا إلى نصيحة سعيد الذي طلب من سائق تكسي أن يأخذنا إلى باب اليمن، البوابة الجنوبية للمدينة القديمة، ويعود لإعادتنا إلى الفندق بعد ساعة ونصف من أمام القلعة في الجانب الشرقي لسوق الملح. أخذنا التوكسي إلى باب اليمن وذهب واعداً أن يعود لنقلنا إلى الفندق.

دخلنا من باب اليمن إلى سوق مكتظ بالبشر. أخرجت أريتنا جهاز التصوير القديم والتقطت الصور للمنازل والأشخاص، للحمير وللجمال. فضلت السير خلف أريتنا هذه المرة لا أمامها ولا بجانبها، إذ على الرغم من أنها ارتدت ثياباً طويلة ومحتشمة تليق بزيارة المكان وتتجاوز فضول الناس، خشيت أن تعكر زيارتها حركة طفل جاهل أو تحرش ملتج غاشم فيترك لديها ولدينا جميعاً انطباعاً سيئاً لا يمكن أن تزيله لا روعة المكان ولا مرور الزمان. مررنا من معظم الأسواق، وشاهدنا معصرة للزيت يديرها رجل. تضايقت أريتنا بعض الشيء من وضع جمل المعصرة، وسألت إذا كانت توجد جمعيات للرفق بالحيوان؟ أجبت:

لا توجد جمعيات للرفق لا بالحيوان ولا بالإنسان.

ثم دخلنا الفندق القديم الذي كان يطلق عليه "سَمْسَرَة النَّحَّاس" وأعجبنا بجهود اليونسكو وتعاون المجتمع الدولي في المحافظة على معالم هذه المدينة المسجلة في قائمة التراث العالمي للبشرية. ابتعنا بعض الحلى القديمة ومضينا من سوق إلى آخر حتى وصلنا أمام قصر غمدان بعظمته وهيبته. لم يُسمح لنا بدخول القصر، فقضيت ما تبقى لنا من الوقت في شرح ما أعرفه لأرينا، وحكيت لها ما يقال عن صنعاء وقصر غمدان قائلاً:

"يُحكى أن هذه المدينة كانت إحدى جنان ذلك الزمان، وأن سام بن نوح وفقاً للأساطير القديمة قد زار معظم مدن العالم فلم يعثر على أروع ولا أجمل من صنعاء. فقرر أن يبني فيها قصر غمدان، هذا المائل أمامنا".

قالت: إذا كان يتكون من عشرين طابقاً فهذا يعني أننا أمام أولى ناطحة سحاب في العالم؟ ربما، الأمر يحتاج إلى مزيد من بحث علماء الآثار والمؤرخين.

وماذا بداخله الآن؟ لقد تعاقبت عليه عدة أسماء، فأحياناً كان يُدعى "قصر السلاح"، وأحياناً "القلعة" أو "سجن القلعة" الذي سُجِن فيه الكثير من المناضلين والثوار. وقد كان يوجد بجانبه شمالاً مبنى صغير يدعى "بيت الزوقبي"، خصص حتى في العهد الجمهوري لسجن النساء. غير أن التسمية التاريخية ظلت طاغية على هذا القصر العظيم، أي "قصر غمدان" الذي تقول الأسطورة الشائعة إن سام ابن نوح قد أسسه. ولماذا لا يرمم ويستخدم لأغراض ثقافية أو سياحية؟

قُدِّمت عروض كثيرة للحكومات المتعاقبة لترميمه وإعادة الحياة إليه. البعض اقترح أن يكون مقراً للصناعات الحرفية، والبعض الآخر أعطاه مهمة أكبر كأن يكون قصراً للثقافة والفنون تعقد فيه الندوات وتقام المهرجانات والمؤتمرات ويسكن فيه الباحث الرائد أو الفنان القادم من الخارج، وغير ذلك من الأنشطة والفعاليات، لكن لا مُجيب لمثل هذه الاقتراحات. قالت:

ما رأيك إذا خَلَفْنَا طفلاً أن نسميه سام، أما إذا كانت طفلة فأروى.

هل يعني هذا أنك حامل ولم تخبريني؟ ربما.

هممت أن أقبل أرينا أمام حراس القصر وحشد المارين، غير أنني تراجعته خوفاً من القبض عليّ لمخالفة الآداب العامة وإيداعي سجن القلعة. فرحنا بذلك الخبر ثم سعدنا التكريسي ليعيدنا إلى فندق حده. استقبلنا سعيد على مدخل الفندق مبتسماً ومبادراً بالإعلان عن مفاجأة سارة وقادني مع أرينا نحو المسبح لنجد الدكتور عصام وزوجته الدكتورة كاترينا في انتظارنا على مسبح الفندق. كانت حقاً مفاجأة كبيرة، لأننا لم نر عصام وزوجته منذ أكثر من خمسة عشر عاماً عندما زرناهم إلى موسكو فكان عصام دليلنا وراعينا منذ أن وطئت أقدامنا موسكو حتى مغادرتها. وقمنا بالشيء نفسه عندما زارنا في بودابست بعد عام من زيارتنا لموسكو.

كانت علاقتي بالدكتور عصام أكثر من أخوية. فقد التقينا لأول مرة في سن المراهقة قبل أن نصبح أعضاء في حركة القوميين العرب. غير أن عصام وبعد أن حصل على منحة دراسية إلى جامعة موسكو التحق باتحاد الشعب الديمقراطي قبل أن يتخلى مع نهاية دراسته عن العمل الحزبي، متمسكاً على الدوام بالتزامه السياسي والفكري وبقضايا النضال الوطني التي كان يقول عنها "من يتخلى عن قضايا وطنه وأمه إنسان بلا فكر ولا مثل".

وكنت أقول له في ود "إذا لم تكن شيوعياً قبل الثلاثين من عمرك فأنت إنسان بلا عاطفة، أما إذا بقيت شيوعياً بعد الثلاثين فأنت إنسان بلا عقل". كانت مسيرتنا السياسية متقاربة وتلتقي في أكثر من محطة، مع فارق أن عصام استمر شيوعياً أثناء الدراسة، أما أنا فقد تحولت إلى الحزب الديمقراطي الثوري الذي نشأ على أنقاض حركة القوميين العرب. ويحكم وجودي في عدن واصلت العمل في الحزب الاشتراكي إلى أن حلت كارثة ١٣ يناير التي أصبحت بعدها أنعت نفسي مازحاً بالمنحرف والمرتب، لأنني رفضت أن أقف مع أي من أجنحة الصراع. لي ذكريات كثيرة مع عصام الذي سجن في صنعاء أكثر من مرة. وعلى الرغم من تخليه عن العمل الحزبي، كان لدى أجهزة الأمن قائمة بالناس بمن يجب اعتقالهم عند حدوث أي مشكلة أو عند توزيع أي منشور، سواء أكان لهم علاقة بذلك أم لا، ومنهم عصام الذي أكد للمخبرين الأشاوس أكثر من مرة أن مهنته كطبيب تأخذ معظم وقته وأنه لم يعد عضواً أو قيادياً في أي حزب. غير أن القائمة القديمة ظلت سارية المفعول عند كل اعتقالات أو ملاحقات للمناضلين والوطنيين.

استعدنا الكثير من الذكريات ونحن نتناول الشاي وطبق الفاكهة الذي تكرر سعيد بتقديمه لنا، وتبادلت أرينا وكاترينا ذكرياتهما، وتعرضت مع عصام لبعض جوانب الكارثة المشؤومة في ١٣ يناير. وفجأة طلب عصام أن نتحرك من على المسبح، لأنه ينوي أن يأخذنا إلى وادي ظهر بعد أن زرنا صنعاء القديمة صباحاً. أجمعنا على روعة الفكرة وسعدنا سيارة عصام الذي كان يسوق ويشرح لنا الكثير عن صنعاء الجديدة والتحويلات التي شهدتها المدينة. وعندما نمر أمام قصر أو تل احتله أحد النافذين وبنى على قمته فيلاً أو قصرًا يشبه القلعة، يقول عصام:

هذا ملك قائد محور صلاح الدين، أما الآخر فيملكه قائد المحور الأموي، أما هذه الأرض المسورة والممتدة على اتساع البصر فقد احتلها قائد المحور العباسي. أما ذلك التجمع السكني فهو ملك قائد نسور الجوا، أما هذا المجمع السكاني الجديد فهو مشروع استثماري ملك مجموعة من أصحاب الجاه والنفوذ. وقد سمعت أن وكيل معظم القادة والمستثمرين وقادة الأسلحة هو أخوك عمار الذي يعتبر من أكبر أصحاب الجاه والنفوذ والسلطة وأكبر الأثرياء.

أرجوك، لا تحدثني عن أخي عمار. لا توجد بيننا علاقة منذ فترة، ولن تكون اليوم بعد كل ما جرى. أعرف أنه قد جمع ثروة من هذا الفساد الرسمي، ولا يشرفني أن أرى ثروته أو أن أتعامل مع سلطته.

أدرك عصام مرارة ردي وغضبي فحوّل مجرى النقاش بقوله:

أمامنا الآن هذا المنظر الرائع. هذا وادي ظهر وهذا دار الحجر الذي كان قصراً للإمام، أما الآن فهناك أئمة جدد وقصور أكبر وأعظم.

أعجبت أرينا بالمنظر والنقطة مجموعة من الصور من قمة الجبل الذي وقفنا على مشارفه أمام الهوة المطلّة على الوادي. لم ينته حديث الذكريات مع عصام، لكن وقت الغداء قد حان فطلب أن نتجه إلى منزله قائلاً إنه قد أخبر الشغالة الإثيوبية أن تعدّ الغداء الذي يعجبني وتحبه أرينا. قلت:

لا أستطيع أن أقول لك لا، لكنني أستغرب أن الشيوعي السابق عصام يستخدم الخدم والحشم. إنها إنسانة طيبة نعتبرها جزءاً من العائلة وقد أصبح وجودها ضرورة.

أنا أعرف أنك وكاترينا تعملان. ولا أخفي عليك أنني شخصياً أكنّ للإثيوبيين والسودانيين وأبناء الصومال كل المحبة والتقدير. إنهم

جيراننا الأقرب، وقد احتضنت أديس أبابا وأسمره ومصوع ومقديشو والخرطوم وأم درمان آلاف اليمنيين المهاجرين. ولذلك ينتابني غضب وثورة لا حدود لهما عندما أسمع بعض العنصريين في بلادنا يطالبون بترحيل هؤلاء القوم الذين احتضنوا آباءهم وأجدادهم.

وصلنا إلى منزل عصام في المدينة السكنية والذي أصبح يتكون من طابقين بعد أن كان طابقاً واحداً عندما تملكه. كل شيء في البيت مرتب وفي وضعه الطبيعي، أرانا الصالون العربي ثم صالوناً آخر أوروبياً. أخذنا إلى الطابق الثاني وأدخلنا إلى غرفة كبيرة مستقلة بحمامها وثلاجتها وكل ما يحتاج له من نزل فيها. قال:

هذه هي الغرفة التي ستنزلان فيها من صباح الغد، لأننا للأسف لم نبلغ الفندق أنك ستغادر الفندق اليوم.

قلت مازحاً: يبدو لي أن هذه قرارات حزبية لا نقاش فيها؟

هذا قرار المنطق. لا يمكن أن تبقى في الفندق وهذه الغرفة فارغة، وأؤكد لك أنني إذا لم أعمل ذلك فهناك الكثير من الأصدقاء والرفاق الذين سيخرجونك من الفندق بدون نقاش. أنت هنا محل تقدير الجميع واحترامهم، والكل يريد استضافتك.

وافقت على اقتراح عصام وزوجته وأن أنتقل إلى بيته ابتداءً من الغد. وبدأنا تناول طعام الغداء اليمني - الإثيوبي بكل شغف ولذة. حتى بنت الصحن الصناعية أصبحت جوردانوس الإثيوبية تجيد إعدادها، لا فرق بينها وبين صنعانية متخصصة. شعرنا بنوع من الاسترخاء بعد وجبة غداء غنية ولذيذة. فطلبت من عصام أن نعود إلى الفندق وأن نلتقي صباحاً تطبيقاً لقراره الغير القابل للنقاش. رافقنا عصام إلى الفندق بعد أن شكرنا جردانوس على الوجبة الرائعة، ثم عاد مباشرة إلى منزله بعد أن وصلنا إلى باب الفندق، وهو يقول: غداً الخميس سوف أصلكم مع كاترينا حوالى التاسعة وستتناول الفطور معكم على المسبح، ثم نأخذ الحقائب ونواصل يومنا.

سنكون في انتظاركم. خلدنا إلى النوم حوالى ساعة بعد وجبة الغداء ثم خرجنا في جولة قصيرة على الأقدام في اتجاه قرية حده. قصور وقلاع خرافية جنوباً وشمالاً وأعلام لسفارات أجنبية. عرفنا أننا في أحد الأحياء الراقية الذي يملك مبانیه

كبار القوم ورموز ثروة الفساد. عدنا بعد جولتنا القصيرة إلى الغرفة، طلب منا سعيد إذا كنا نرغب أن يحضر لنا العشاء. قلت:

شكراً يا سعيد. لا نستطيع أن نتناول هذه الليلة أي شيء، فقد كان الغداء غنياً يكفينا حتى الصباح.

أضاف سعيد:

هل يمكن أن أقول لك كلمتين على المسيح وليس في الغرفة؟

لماذا لا تقولها هنا، هل يضايقك وجود زوجتي؟

لا أبداً الأمر يختلف.

إذاً، لنتجه نحو المسيح.

وعندها بدأ النقابي سعيد يقول لي بصوت خافت:

لا أريد أن نتحدث في الغرفة، فكل شيء يُسمع، وللجدران أذان أحياناً. أريد أن أخبرك بيني وبينك أن اثنين من رجال الأمن وصلوا، بعد مغادرتك مباشرة نحو وادي ظهر، إلى الفندق يسألان عنك. قلنا لهم إنك مع زوجتك في فندقنا لكننا خرجتما في جولة. طلبوا الاطلاع على جوازاتكما وكتبوا كل شيء لكنهم لم يأخذوا الجوازات.

وماذا يريد رجال الأمن مني؟

لا أعرف، حتى أنهم ألقوا نظرة على سيارتك وإن لم يفتحوها. وأرجو أن يكون هذا الكلام بيني وبينك، لأن رجال الأمن يستطيعون فصل من يريدون من العمل ويوظفون من يريدون.

هل يضايقك إذا أخبرتك الدكتور عصام عندما يأتي صباح الغد؟

لا. الدكتور عصام محل ثقة ومناضل. بإمكانك أن تخبره.

بالطبع، أخبرتك زوجتي عن طبيعة محادثتي مع سعيد ولكن بصوت أقل من خافت وبلغة غير العربية. تضايقت بعض الشيء وقالت: لم نعلم بأي جرم. عماذا يبحث هؤلاء المخبرون؟

حاولنا النوم، لكن القلق والتفسيرات منعنا عنه إلى أن تمكنا في الأخير من انتزاع قسط منه. صحتنا باكراً ورتبنا حقائبنا وخرجنا حول المسيح في انتظار عصام وزوجته. سألت سعيد:

هل أقدم لكم الفطور؟

ليس الآن. عندما يصل د. عصام وزوجته حوالي التاسعة.

حسناً. سأحضر فطور لأربعة أشخاص. هل ترغبون في قهوة أو شاي؟

أعتقد أننا الأربعة سنتناول شيئاً من القهوة، ويستحسن أن ننتظر قدومهم.



سوى أنني قادم من عدن، لكن أين المشكلة؟ لم نجد أية إجابة، ولذا نسينا المراقبة ولم نعرها أهمية تذكر.

وعند حلول الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر بدأ ضيوف عصام يصلون الواحد تلو الآخر. كانوا جميعاً أصدقاء ورفاقاً أبحث عنهم وأعرفهم من أيام الدراسة والسياسة والحياة السابقة بشكل عام. فرحت وأنا أرى الرفيق طاهر الذي وصل مع الكاتب محمود، وبعد لحظات وصل المهندس توفيق والمحاميان أحمد وعلي والناشط محسن. تعانقنا بمحبة وصدق تعطرها رائحة الذكريات بمرها وحلوها. لا يوجد واحد من هؤلاء إلا وقد سجن وعذب وفصل من عمله. لا يوجد واحد منهم إلا وقد خونته السلطة واعتبرته منحرفاً وعميلاً. كل هؤلاء في نظر أجهزة الأمن حَمَلَة أفكار هدامة ومستوردة. عبّر الجميع عن سعادتهم بلقائي وشكروا عصام على دعوته الرائعة. أتت كل من كاترينا وأرينا لتحيتهم فهما يعرفان البعض من الرفاق ويقدران ذكرياتي الجميلة معهم. تناولنا طعام الغداء، كل يخدم نفسه بنفسه. بدأ البعض يسألني عما زرت في صنعاء. قال عصام:

ولماذا لا تخبرهم ببقية الرواية؟

أتركها لك، فأنت أعرف مني بمثل هذه الروايات.

تساءل الجميع عما حدث.

قال لهم عصام:

يوم أمس زار المخبرون الفندق للبحث عن صادق وأخذوا من إدارة الفندق كل المعلومات الخاصة بالجوازات. أما اليوم فقد تبعونا بسيارة عن بعد حتى تأكد لهم أننا قد دخلنا المنزل.

قال المهندس توفيق:

بشركم الله بوجه النبي؟ إذاً، كلنا الآن تحت الرقابة البوليسية؟

أما محمود فعقب على ما حدث بقوله:

لم يعودوا يخيفوننا في شيء. فلم يعد أي منا هنا يمارس أي نشاط حزبي، أما إذا كانوا يعتقدون أن بإمكانهم أن ينتزعوا التزاماتنا السياسية والفكرية من ضمائرنا وأن يطمسوا نضالنا الطويل فهم واهمون. نحن نسكن جميعاً في هذه المدينة السكنية الصغيرة التي تسهل لهم مراقبتنا بل مراقبة جميع سكانها بواسطة ستة أو سبعة مخبرين لا غير.

الكل أننا لن نقدم على مغامرة من هذا القبيل، وبخاصة أن زوجتينا أجنبيتان والخطف تجارة سائدة.

صعدنا جبل عَصِر إلى منطقة الصُبَاحة. توسعت صنعاء حقاً، إذ إننا حتى من علو مرتفع لا يمكن أن نرى أطرافها. وبعد أن مكثنا هناك بعض الوقت بدأنا نتدحرج بهدوء نزولاً حتى وصلنا ضريح المهندس الصيني الذي توفي وهو يشق الطريق بين الحديدية وصنعاء، وهو طريق يؤكد الجميع أنه قام بدور كبير في نجاح ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، وكذلك في كسر حصار السبعين يوماً. توقفنا أسفل الجبل أمام سوق شعبي نرى فيه حشوداً من المتسابقين لشراء القات. أما نحن فقد اكتفينا بشراء بعض الطماطم والخضار وشيء من الفاكهة. وحين عدنا إلى السيارة أخبرني عصام أنه دعا للغداء ستة أو سبعة أشخاص دون أن يذكر لي اسم أي منهم. لاحظ عصام ونحن في طريق عودتنا نحو حده أن سيارة غريبة تراقبنا وتتبعنا عن بعد. سألته:

كيف عرفت ذلك؟

من كثرة المراقبة وغباء المراقبين أصبحنا في هذا البلد نعرفهم بكل بساطة، لكن لا تعيروهم أي اهتمام، فهم يعرفون من نحن، وأين نتجه، وربما يعرفون عدد الطماطم وأنواع الخضار والفاكهة التي اشترينا.

وحين وصلنا المنزل اختفت السيارة التي تراقبنا بعد أن تأكد المخبرون أننا قد دخلنا المنزل. لم نتمكن من معرفة أسباب مراقبتنا،

وصل عصام وزوجته في التاسعة تماماً. رحبنا بهما ولكنهما لاحظا على ملامحنا نوعاً من القلق. سألت كاترينا:

هل نمتما بما فيه الكفاية؟

أجابتها أرينا بأننا لم ننم كما ينبغي. وحين وصل سعيد، أكدنا له أننا جميعاً من أنصار القهوة صباحاً، أما الفطور فتركناه لاختياره. ومن جديد سألتني عصام عن سبب ما يبدو عليّ من قلق فأخبرته بلغة غير العربية أن رجال الأمن قد تفحصوا جوازاتنا بالأمس ودونوا كل المعلومات وألقوا نظرة على سيارتنا العتيقة غير أنهم لم يفتحوها. وأضفت أنني أعتقد أن زهابنا للنزول في داره قد يسبب له ولزوجته إشكالات هما في غنى عنها. قال وبحسم لا نقاش فيه:

أبدأ، نحن نذهبون إلى المنزل وليحدث ما يحدث، لم يعد بإمكانهم اليوم أن يفعلوا ربع ما فعلوه معي خلال السنوات الماضية. ثم ما هي الجريمة التي ارتكبتها أنت؟

تناولنا الفطور بوجوه عابسة في الوقت الذي أخذ الإنسان الطيب سعيد حقائبنا ووضعها في السيارة. ثم اتجهنا نحو موظف الاستقبال لمحاسبته واستعادة الجوازات. صعد الجميع في سيارة عصام، أما أنا فتبعتهم بسيارتي مع الحقائب بعد أن ودعت سعيد ووعده بالعودة بين الحين والآخر لأخذ القهوة على المسيح ولتحيته إذا طال بقاؤنا في صنعاء. وصلنا منزل عصام، ورتبنا أغراضنا في الغرفة ثم اتجهنا وفقاً لاقتراح كاترينا وعصام لزيارة منطقة عَصِر، أما زيارة حجة ومأرب فأجمع

مجلس الأصحاب

وبعد أن انتهينا من طعام الغداء ارتاح الجميع لاقتراح أن ننتقل إلى منزل مجاور خاص بالباشا مهندس طه، لأن مجلسه أوسع، وسيكون الحضور كثير العدد بعد أن أخبر عصام الكثير من الأصدقاء بوجودي. قلت:

لكني لا أتناول القات.

قال عصام وطاهر:

ونحن أيضاً ولكن سنشارك بشرب الشاي والقهوة. ذهبنا على الأقدام وأحدنا يقول سيعتقد رجال الأمن أن مظاهرة على وشك أن تتكون.

استقبلنا المهندس طه بالبشر والسرور، وخصني بعناية خاصة. دخلنا ديوانه العامر الذي سبقنا إليه عدد من الأصدقاء معظمهم من سكان هذا الحي الذي يطلقون عليه المدينة السكنية، وبعضهم من سكان أحياء أخرى. جلست بجانب طاهر وعصام لأننا من أصحاب القهوة لا من أنصار القات. تحدثنا عن ذكريات الشباب والغربة، وعن العمل الحزبي والسياسي لمعظم الحاضرين. كان المجلس يزخر بمختلف الآراء السياسية والفكرية، ففيه البعثي والناصرى ومثقفون من حزب العمل ومن اتحاد الشعب وعدد من قدماء أعضاء الحزب الديموقراطي الذين تحول معظمهم إلى حزب الوحدة الشعبية، الفرع الشمالي للحزب الاشتراكي، إضافة إلى عدد من المستقلين. بدأ بعضهم يسألني عن أحداث ١٣ يناير في عدن، فلاحظوا ترددي وأدركوا أن جراحي لا تزال عميقة. كانوا جميعاً كرماء معي فتجنبا إجرافي على الرغم من معرفتهم لرفض الانضمام إلى أي من طرفي الصراع. سألتني طاهر بعفويته المعروفة عن أخبار الزميل عمر الذي كان يحلم أن يكون رائد صحافة حرة ومستقلة تفتح صفحاتها لكل كاتب ومثقف أياً كان اتجاهه الفكري والسياسي. همست في أذنه ودموعي تسبق كلامي:

البقية في حياتك. أما ابنه فراس فلا يزال ينتظر عودة والده حاملاً الهدايا وأدوات الرسم التي يحبها.

انهمرت الدموع من عيني طاهر، فقلت له أرجو أن تحول النقاش إلى ذكرياتنا عن الماضي البعيد.

سارع طاهر يساعده عصام بتغيير مجرى النقاش لتناول بعض الذكريات القديمة معبراً عن الأمل في أن تكون إقامتي في صنعاء طويلة مشيداً بما سماه زهدي في مغريات الحياة وقدرتي على اتخاذ الموقف المناسب في الوقت

المناسب، مجدداً الترحيب بمقدمي. وعبرت بدوري عن شكري لهم وتقديري للحفاوة بقدمي إلى صنعاء، هذا الاحتفاء الذي فاجأني، إذ على الرغم من الانقطاع الطويل ومن إقامتي الدائمة في عدن، يغممني الرفاق والأصدقاء اليوم بالود وبالاحترام إلى هذا اللقاء الذي أعاد إلي الأمل وبت في رونق الحياة. وأشدت بما قدموه جميعاً، الحزبي الملتزم منهم وغير الملتزم بحزب، والمستقل، من تضحيات، وتعرض معظمهم للاعتقال وعانى من التعذيب، ونكلت بهم أجهزة الأمن، ومع ذلك لم تستطع أن تفت في عضدهم، ولم تصدهم عن التعبير عن مواقفهم الوطنية المدافعة عن حق البلاد في التنمية والتقدم والخروج من دوامة الفقر والتخلف. وواصل كل من موقعه وبأسلوبه الخاص التعبير عن أحلامه وعن تعاطفه مع الناس في بلاده. وقلت لهم إن صفحة التاريخ الحديث لهذه البلاد قد كتبت بدمائهم وعذاباتهم ولا يستطيع أحد اليوم أن يمحوا الأثر الكبير الذي سطره في صفحة تاريخ البلاد.

حاولت بعد هذه الكلمات أن ننتقل إلى كلام فيه من العفوية والبساطة لكي نتحدث بصراحة حديث القلب إلى القلب مستشهدين بذكرياتنا المرة والحلوة، لكنني أحببت أن أعرف سبب هذا الاحتفاء بي بعد أن اختلفنا في العمل السياسي والنقابي أكثر مما اتفقنا. قال أحدهم:

كان لاختلافنا ما يبرره، لكن الحياة في هذه المدينة قد وحدثنا في الرؤى والمواقف، وغيّرت البعض إلى نقيض ما كانوا يعلنون من مواقف.

أما أنت فقد اخترت وأنت ما تزال صغير السن، ثم وأنت شاب ومسؤول، أن تتجه جنوباً ولم تتخل عن مواقفك وعقيدتك وزهدك. ثم إن موقفك في الأحداث الأخيرة كما رواها لنا بعض القادمين قد زادتنا إعجاباً. فقد اتسمت بالنضج والتروي والاعتدال على الرغم من أنك كنت من المتطرفين أثناء الدراسة وبداية العمل السياسي.

قلت:

لم أكن معتدلاً لا في الماضي ولا في الحاضر، ولن أكون في المستقبل. أما التطرف فإذا كان بالمعنى الذي قصده جبران فأعترف أي كنت ولا زلت متطرفاً.

من جبران هذا؟ أهو زميلنا الذي يعمل حالياً في مركز الأبحاث في عدن؟

لا. أنا أقصد جبران خليل جبران الذي قال في الاعتدال:

”لقد خبرت المعتدلين، ووزنت مقاصدهم بالموازين، وقست مآتيهم بالمقاييس، فوجدتهم جنباء يخافون الحق ملكاً والباطل شيطاناً. فيحتمون بأواسط العقائد والقواعد التي لا تنفع ولا تضر، ويتبعون السبل الهينة التي تقودهم إلى صحراء مقفرة خالية من الرشاد والضلال، بعيدة عن السعادة والشقاء“^(٦).

حلّ صمت في المجلس وتبادل الزملاء النظر إلى بعضهم البعض. وعندها قلت: النص طويلة يا أصدقائي لا أتذكره كله، لكن هناك مقاطع أخرى لا يمكن أن أنساها، منها قول جبران:

”ومن يعتدل في مناصرة الشر ومناصرة



الخير لا يصرع شراً ولا ينجد خيراً“ ومن يعتدل في السعي وراء الحرية لا ولن يرى سوى آثار قدميها بين التلول والمنحدرات. فالحرية كالحياة لا تبطل ليحلق بها العرج والمقعدون. قال الروائي والشاعر عبد الباقي:

واصل لتقول لنا ما قال صاحب ”النبى“ في المتطرفين.

قلت:

مما سطره هذا المبدع ما يلي: ”أحب الذين يميلون بكليتهم إلى وحدانية الأمور فلا يقفون مترددين بين نقيضين“.

”أحب الشهداء المشغوفين المستميتين المسترخين كل شيء إلى الغاية القصوى، المستصرخين كل أمر إلا الغرض الأسمى، أحب الذين أحرقوا ورجموا وشقوا وقضوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم وعاطفة أشعلت قلوبهم. أحب من الناس المتطرفين، فما رفعت كأسى إلى شفتي إلا لأنوق طعم دماهم ودموعهم، وما نظرت من نافذتي إلى الفضاء إلا لأرى وجوههم، وما أصغيت للعاصفة إلا لأسمع أهازيجهم وتهاليلهم“.

قلت:

وهكذا ترون أننا جميعاً في نظر السلطة متطرفون، وسأظل شخصياً متطرفاً كما بالمعنى الذي قصده صاحب ”النبى“ في مطلع القرن العشرين. وما أراه اليوم في حاضرة اليمن لا يزيدني ويزيدكم جميعاً إلا تطرفاً وتمسكاً بما آمنّا به، وبالمثل والمبادئ الداعية إلى العدالة الاجتماعية والحرية والمساواة وهي المبادئ التي رفعناها عالياً ونحن شباب وينبغي أن تظل مرفوعة ونحن كبار في الحاضر والمستقبل، وبما أننا قد بدأنا بجبران فاسمحو لي أن أنهى كلامي بقوله:

”قد يُضرب الحر ويُهان، أما حرته فتظل في مأمن من الأيدي الخشنة والأصابع القذرة. وقد يموت الحر أما حرته فتبقى سائرة مع موكب الحياة نحو الأبدية“^(٧).

انتقل النقاش في المجلس بعد ذلك إلى تناول موضوع القمع والحرية، وكيف أن شعوباً في أكثر من قارة تمكنت من إسقاط أنظمة القمع والبطش والتجوع، إلا العالم العربي الذي يعيش خارج عصره، وفي تراجع دائم في مختلف المجالات. فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة التي اختص بها العالم العربي دون غيره من شعوب العالم؟ اجتهد أكثر من متحدث. قال أحدهم إن الحاكم العربي قد عرف حسب تعبيره من أين تُوكل الكتف، فسيطر الحكام على قوى الأمن والجيش

وترك بعضهم فقااعات الديمقراطية المحدودة لإلهاء شعوبهم والحصول على المساعدات الدولية. وأشار آخر إلى واقع أن الأنظمة العربية تتجه نحو التوريث، ويستحسن أن تتحول إلى أنظمة ملكية دستورية يملك فيها الحاكم لكن لا يحكم، بل يكون الحكم بيد سلطة منتخبة بشكل ديموقراطي حقيقي. وتساءل آخر: ”ومن قال لك إن أياً من الحكام سيقبل أن يكون على الكرسي ويترك تسيير شؤون البلاد والعباد وصرف الأموال وتوزيع المناصب وتعيين القضاة لغيره؟ هذا كلام غير قابل للتحقيق“. اتسم النقاش في بداية المقيبل بالجدية والتفاعل، وبخاصة لأنه لم يعد لدى معظم الحضور شيء يفقدونه. أما في نهاية المقيبل أو حسب القول الشائع عند حلول ”الساعة السليمانية“ فقد خفَّ النقاش وأصبح البعض يحدث من جانبه بصوت خافت، وأحياناً يتأمل ويحلّق في أموره الخاصة والعامّة دون حديث. عندها كان وقت مغادرة المجلس قد بدأ وكان عصام وطاهر وأنا أول من استأذنوا بالخروج لكوننا ثلاثي القهوة والشاي. ودّعنا الجميع وتواعدنا على أن نلتقي في مجلس آخر خلال الأيام الثلاثة القادمة.

عدت مع عصام إلى منزله. وكانت أرينا وكاترينا قد استقبلتا بعض النساء لشرب القهوة، وحين وصلنا كانت تلك النسوة قد خرجن. وبدأت مع عصام استراحة المساء مع بعض المشروبات. وما هي إلا لحظات حتى سمعنا طرّقاً على باب المنزل الخارجي. سارعت العاملة جوردانوس لفتح الباب لتجد أمامها ثلاثة من رجال الأمن وآخرين منهم ينتظرون داخل سيارة أخرى تقف بعيداً عنهم. سألوها عن عصام فعدت لتخبر صاحب الدار بأن قادمين بالباب يسألون عنه، لكن رجال الأمن الثلاثة دخلوا إلى الحديقة دون إذن من أحد. عندها نزل عصام وسمعناه يسألهم عن سبب مجيئهم؟ أجابه أحدهم بأنهم يبحثون عني. قال لهم: نعم. إنه يسكن معنا ومعه زوجته، ولكن ما سبب بحثكم عنه في هذا الوقت بالذات؟ هل لديكم أمر من النيابة بدخول منزلي واعتقال ضيفي؟

أجاب أحد الضباط الثلاثة: هذا أمر يتعلق بأمن الدولة، والقضية خطيرة ومستعجلة ولا نحتاج لأمر من النائب العام أو من غيره.

سمعتُ النقاش الذي طال فالتحقت بعصام وتبعته زوجتي، وأيضاً نزلت كاترينا زوجة عصام، أما العاملة فوقفت على مدخل الباب.

طلب مني رجال الأمن الثلاثة أن أرافقهم إلى مقرهم. قلت: لماذا؟ ما سبب هذا الاستدعاء؟ هل هناك جريمة ارتكبتها دون أن أعرف؟

ستحدث عن كل ذلك في مقر الأمن.

هل أستطيع أن أستدعي محامياً لمرافقتي إلى مقركم لكي يطلع على التحقيق؟

لا. قضايا أمن الدولة لا تستلزم وجود محام. لسنا أمام محكمة. تفضل بالصعود معنا في السيارة.

صرخت أرينا وتذكرت ما حدث للصحافي عمر الذي اقتادته مجموعة عسكرية في عدن ولم يعد. قالت:

لا، لن أترك زوجي يذهب وحيداً معكم. سأذهب معه.

وتشبتت بي بقوة. وتشبتت كاترينا بأرينا وهي تقول:

وأنا معكم. مستحيل أن أترك أرينا تذهب وحدها. فهي أجنبية مثلي لا تعرف شيئاً ولن تترك زوجها.

حاولت العاملة جوردانوس أن تشبتت بدورها بكاترينا، إلا أن أحد الضباط انتزعها بقوة فسقطت أرضاً وهي تصرخ من الألم. قلت لعصام:

ألم أقل لك إننا في مجتمع عنصري. هكذا تُضرب جوردانوس.

أدخلني رجال الأمن سيارتهم لكن أرينا وكاترينا دخلتا معي، ثم اتجهنا وسيارة الأمن الأخرى تتبعنا إلى أحد مقار الأمن الذي يقع حسب معلومات كاترينا جنوب العاصمة. أما عصام فاتجه مباشرة إلى منزل المهندس طه ليبلغ من بقي في المجلس من الزملاء بمهزلة ما حدث. صعد الدرج بسرعة ودخل إليهم وهو يقول:

اعتقل رجال الأمن الدكتور صادق وتمسكت به زوجته وزوجتي والثلاثة الآن معتقلون في جهة مجهولة. خيم صمت ثقيل على جميع من بقي. وفجأة نهض المحاميان أحمد وعلي وهما يرددان:

هذه جريمة، وتصرف غير قانوني. سنتجه مباشرة إلى منزل النائب العام. بادروا بإبلاغ وكالات الأنباء الأجنبية ورجال الصحافة والسياسيين في المعارضة بما حدث. هذه جريمة اختطاف لن تمر بسهولة.

اتجه المحاميان إلى منزل النائب العام الذي أقسم أمامهم أن لا علم له بما حدث من قريب أو من بعيد، وأنه سوف يبذل كل جهد ممكن لمعرفة

أسباب اعتقالي.

و حين علمت ناشطتان بارزتان بما حدث اتصلتا بزوجة القائم بالأعمال السوفياتي وأيضاً بزوجة الملحق المجري باعتبار زوجة عصام مواطنة سوفياتية وزوجتي مواطنة مجرية. وتلقى رئيس الوزراء خلال الليل عدداً من المكالمات الهاتفية كما تلقى عدد من الوزراء مكالمات أخرى، لكن الجميع أكد أن لا علم لهم بالاعتقال، وأنهم سيبدلون كل جهد ممكن لدى جهاز الأمن لمعرفة السبب وحل القضية سريعاً.

وصلت ومع زوجتي وكاترينا إلى أحد مقار الأمن في المنطقة الجنوبية. استقبلنا ضابطان لم يكونا من بين أولئك الذين تولوا اعتقالنا. طلبا من أرينا وكاترينا أن يعودا إلى المنزل مباشرة. ولما رفضتا أمرهما بالجلوس في الغرفة المجاورة لغرفة التحقيق التي يجب أن لا يدخلها إلا المحقق معه. حاولتا الرفض دون جدوى. دخلت عندئذ إلى غرفة التحقيق وبدأ السؤال والجواب.

الإسم؟
صادق بن محمد المنصوري.

المهنة؟
طبيب جراح.

الجواز الذي تحمله؟
يمني جنوبي.

من أي منطقة في الجنوب؟
سكنت عدن معظم حياتي لكنني مولود في قرية شمالية.

من أين أتيت إلى صنعاء؟
من قرية قرن منصور.

كم قضيت فيها؟
عشرة أيام.

هل أنتم في قرية قرن منصور زيود (زيدية) أم شوافع (شافعية)؟
هذا سؤال لم يكن يخطر ببالي في يوم من الأيام، فقريتنا فيها الزيدي والشافعي، ثم لا أخفي عليك أن آباءنا كانوا يقولون إن هناك ثلاث أو أربع أسر يهودية عاشت في قرن منصور وكان الوثائم والسلام سائداً بين الجميع. ثم إنني كنت قومياً ثم ماركسياً أممياً ولم أعرف الطائفية لا في الماضي ولا في الحاضر.

هل زوجتك مسيحية أو يهودية؟
إنها مسيحية.

هذا أفضل.
شكراً. سأخبرها بذلك.

ماذا فعلت في القرية؟ وبمن التقيت؟
كنت في القرية لزيارة أهلي وجبراني

الطيبين. أما بمن التقيت فبكثير من الناس، كلهم مرضى يعانون أمراضاً مزمنة ومتاعب لا حصر لها. تمكنت من علاج بعضهم، وتمنيت للبعض الآخر الشفاء العاجل.

عندما أتيت من عدن ما هو الطريق الذي سلكته؟
الطريق الرسمي الذي يربط الجنوب بالشمال مروراً بتعز ثم إب. وعند وصولنا إلى ذمار اتجهنا إلى قرية قرن منصور.

هل قامت النقاط العسكرية ورجال الأمن بتفتيشكم والتأكد من أوراقكم؟
نعم. أعتقد أكثر من عشر نقاط ولم يجدا معنا إلا حقائب الملابس وكرتون الأدوية.

عندما نشبت أحداث ١٣ يناير مع أي فريق كنت؟
مع نفسي.

كيف؟
لم أكن مع أي فريق، ولم أخرج من منزلي، لأن المعركة لم تكن معركتي. الصراع كان شخصياً ومناطقياً وقبلياً يتناقض مع مثلي ومبادئني ومن ثم لم يكن لي في هذه الأحداث الدامية أي موقف ولم أكن مع أي فريق.

هل لك أن تصف لنا كيف دارت هذه المعارك الدامية؟
”أنا لا أقود جيشاً، ولا أخوض حرباً، ولا أشير بسفك دم“^(٨).

هل تعرف الأستاذ الكبير عمار بن محمد المنصوري؟
أستطيع أن أقول إنني أعرفه ولا أعرفه، أعرفه لأننا من نفس الأب والأم ونفس القرية، أما أكثر من ذلك فلا توجد بيني وبينه أي معرفة.

هل تعرف أن الجميع هنا يكنّ لرجل الأعمال الناجح والبرلماني المتميز عمار بن محمد المنصوري كل تقدير واحترام؟
مبروك عليه وألف مبروك لكم به.

قال الضابط: والآن نبدأ التحقيق الجدي. وهذا كله ماذا تسميه؟ أرجو في هذه الحالة أن تسمح لي أن أطمئن زوجتي وصديقتها في الغرفة المجاورة. وإذا كنت ترغب بمرافقتي فلا مانع.

خرجنا إلى الغرفة المجاورة لنجد أرينا مع كاترينا تدرقان الدموع وعلامات القلق بادية على ملامحهما. جلست معهما لحظات مطمئناً ومهدئاً. قالتا بصوت واحد:

ماذا يريدون منك؟
حتى الآن لا شيء، غير أن الضابط يقول إن

التحقيق الجدي سيبدأ الآن. أرجو عدم القلق. وأنا آسف على كل هذه المتاعب التي سببتها لكما هذه الليلة ولكثير من الزملاء والأصدقاء. ثم عدت مع الضابط إلى غرفة التحقيق. وحينذاك أمر الضابط المحقق ضابطاً آخر أن يرفع قطعة القماش التي تغطي الكرتون، فكانت مفاجأتي كبيرة أن أجد الكرتون نفسه الذي جلبته من عدن هدية من البعثة الطبية الكويتية مليئاً بالأدوية لمعالجة مرضى القرية. وجّه المحقق سؤاله إليّ قائلاً

هل هذا الكرتون ملكك؟

نعم. كان هذا الكرتون مليئاً بالأدوية، وقد تركته في القرية بعد نفاذ ما فيه، لكنني أستغرب كيف وصل إلى هنا، ومن حملة من القرية إلى صنعاء. لقد كان خالي محسن يفكر أن يضع فيه بعض ثيابه القديمة.

لكنك تعترف الآن بشكل واضح وصريح أنك صاحب هذا الكرتون؟

نعم. أنا صاحبه. وكما ترى، لقد كتب عليه بالعربية والإسبانية هدية من البعثة الطبية الكويتية.

هل تسمح لنا أن نفتحه أمامك لمعرفة ماذا يحتوي؟

قلت لك إنه كان مليئاً بالأدوية، أما الآن فهو فارغ لا يوجد بداخله شيء. ثم إنه قد فتح وتعرض للتفتيش منذ نقطة التفتيش الأولى عند ما يسمى حدود الجمهورية العربية اليمنية، واستمر مفتوحاً يفتش في مختلف نقاط التفتيش الكثيرة التي مررنا بها. ولذلك لا أعرف ماذا تقصد بمعرفة ما بداخله.

أريد أن نفتحه أمامك لمعرفة ما بداخله. إفعل ما تريد أيها الضابط.

سارع الضابط إلى فتح الكرتون الشهير وإذا به يحتوي على مختلف أنواع الأسلحة والمتفجرات. سأل الضابط:

هذا هو كرتونك المقدم من البعثة الطبية الكويتية حسب قولك. أليس كذلك؟

هذه مؤامرة خسيصة وعواقبها وخيمة. لقد أجبته على كل أسئلتك ولكن بما أنه قد اتضح لي الآن ماذا تريدون أن تورطوني به، أرفض من الآن وصاعداً الإجابة عن أي سؤال يتعلق بجريمة بهذا القدر وبمؤامرة خطيرة من هذا النوع، وأطلب حضور أكثر من محام، ولن أنطق بكلمة واحدة إلا أمام المحامي الذي أختاره. هذه تهمة خطيرة تترتب عليها عواقب وخيمة.

لكنك اعترفت أنك صاحب هذا الكرتون؟ نعم، أنا صاحب الكرتون ولكنه كان فارغاً

وتم تفتيشه من رجال الأمن مراراً على طريق قدومنا. وسأكرر ما أقول الآن أمام أية محكمة، لكنني لم أقل إن هذه الأسلحة والمتفجرات التي وُضعت داخله ملكي ولا علاقة لي بها من قريب أو من بعيد. بل ولا أعرف أنواعها ولا استخدامها. أنا طبيب جراح وليس ملغم أو مفرج قنابل أو مستخدم أسلحة. وأستطيع أن أجزم أن أجهزتك تعرف حق المعرفة من وضع هذه المتفجرات وحملها إليكم، وكان عليكم أن تتحرروا وتتفحصوا قبل أن تسوقوا لي تهمة بهذا الحجم والخطورة، إلا إذا كنتم شركاء في هذا التلغيق للتهمة.

عندها سارع الضابط إلى فتح آلة تسجيل وإذا بنا نسمع تسجيلاً واضحاً لكل النقاش الذي دار في مجلس المهندس طه.

هل هذا صوتك؟

نعم إنه صوتي وكلامي.

أنت تعترف أنك متطرف و ضد الاعتدال وتدعو هؤلاء الغوغائيين الذين حضروا المقيبل إلى التطرف. أليس كذلك؟

هؤلاء الذين تسميهم "الغوغاء" هم في نظري نخبة البلد وضميره الثقافي والفكري.

لقد تمكنت من إدخال أحد مخبريكم ليسجل هذا الشريط. هذا شأنكم، ولكن للنقاش المسجل هنا طابع فكري وثقافي أكثر من سياسياً. والأقوال التي قرأتها عن الاعتدال والتطرف هي للمبدع جبران خليل جبران، هل عندكم كتاب لجبران لكي أوضح لك الاستشهادات التي قلتها عنه؟ لا. لا يوجد لدينا كتب لأحد، ولا نحتاج إلى أي كتاب هنا.

ثم طلب الضابط أن أوقع على محضر التحقيق وأصررت على أن أكتب بجانب توقيعتي "أعترف بكل ما قلت وأنفي جريمة حيازة الأسلحة والمتفجرات". طلب مني الضابط أن أنتظر لأنه يريد أن يناقش الأمر مع رئيس جهاز الاستخبارات وكبار المسؤولين. قلت له: سوف أنتظر. لا أعرف أن رئيس المخابرات وكبار العاملين معكم يعملون في الليل وليس في النهار.

لم يرد على فضولي، وغاب نحو عشرين دقيقة ثم عاد ليخبرني أنهم قد قرروا أن يعيدوني مع زوجتي وكاترينا إلى منزل عصام شريطة أن لا أخرج من هذا المنزل وأن لا أستقبل أحداً، وأن أجهز الأمن ستحرص على ذلك وستراقب عن قرب كل نشاط يمكن أن أقوم به، وأن قضيتي ستقدم بشكل عاجل إلى محكمة خاصة بقضايا أمن الدولة.

نهضت من دون أن أعقب بكلمة واحدة واتجهت نحو الغرفة المجاورة لأخبر زوجتي وزوجة عصام بأنه قد حان وقت العودة إلى المنزل، وعلامات الغضب بادية على وجهي. رافقتنا سيارة من المخابرات إلى منزل عصام الذي وصلناه الساعة الرابعة صباحاً. لم أنطق بكلمة واحدة ونحن داخل سيارة الأمن، غير أن علامات الغضب والتساؤل كانت بادية على ملامحي. وحين قرعنا جرس البيت كان عصام واقفاً على عتبة بابه الخارجي. وقد لاحظ بسهولة عند وصولنا نحن الثلاثة أن وجوهنا عابسة، ولذلك لم يوجه لنا أي سؤال.

واتجهت فوراً إلى غرفة النوم. حاولنا أن ننام دون جدوى. فكرنا وحللنا وطرحنا على أنفسنا الأسئلة حول ما حدث دون أن نتمكن من العثور على أجوبة مقنعة. خرجت إلى حديقة المنزل حوالي الساعة صباحاً وبعد لحظات لحقتني زوجتي ثم لحق بنا عصام وزوجته. قدمت لنا جوردانوس الفطور وبدأت أشرح لهم تفاصيل ما دار وعن الجريمة التي يريدون إلصاقها بي. وأخبرت عصام بأنني قد منعت من مغادرة المنزل أو استقبال الزوار، وأن أجهزة الأمن تراقبني حتى يتم تقديمي لمحكمة خاصة وطارئة بقضايا أمن الدولة. قال عصام وهو يبتسم إن منعي من الخروج من المنزل هو أفضل ما في القرار. فما عليّ إلا أن أطبق هذا القرار الحكيم حسب قوله، وأضاف في شيء من السخرية "كان عليك أن تشكر الضابط على هذا القرار". ضحك الجميع وبدأت الابتسامة تعود إلى شفاههم بسخرية واستنكار لما حدث.

طرحت السؤال الذي كررته أكثر من مرة أمام ضابط التحقيق: كيف وصل كرتون فارغ

تركته في القرية إلى الأمن مليئاً بالأسلحة والمتفجرات؟ وقلت لنفسي قد يكون عند أختي عادة وخالي محسن الخبر اليقين، وقررت أن أبعث لهما برسالة كي يحضرا إلى صنعاء، وطلبت من عصام أن يبحث عن رجل ثقة يذهب ليأتي بأختي وخالي في أقصى سرعة. هز الجميع رؤوسهم بالموافقة كما لو كان

ذلك الحل الذي لا بديل عنه. خرج عصام وعاد بعد حين بصحبة رجل يعرفه ويثق به في حين كنت قد حررت رسالة إلى غادة أطمئنتها وأحثها على أن تأتي ومعها الخال محسن في أسرع وقت ممكن. بعد ذلك غادر السائق صنعاء بسيارته حاملاً رسالتي في اتجاه قرية قرن منصور التي أوشكت أن تدخل التاريخ من البوابة الأمنية. وأخبر عصام المحاميين بآخر التفاصيل وبأن الإقامة الجبرية قد فرضت عليّ ومُنعت من استقبال أي شخص حتى تنتهي المحكمة الخاصة بقضايا أمن الدولة من النظر في قضيتي. غضب المحاميان لهذه الإجراءات التعسفية التي لا علاقة لها بالشرع ولا بالقانون، وبدأ العمل للحصول على موعد من مكتب النائب العام. وحين التقياهما استقبلهما بترحاب ظاهر لأنه يعرف أنهما من كبار المحامين ممن اكتسبوا شهرة واسعة في مهنتهم. لكنه تجنب الحديث عن القضية في مكتبه بمبرر أنه على وشك أن يذهب في مشوار قصير ودعاهما لمرافقته حتى موقف سيارته.

عرف المحاميان بسهولة أن النائب العام يخشى المراقبة والتنصت على ما يقول. نزل الثلاثة إلى موقف سيارة النائب العام، وهناك قال لهم: إن هذه القضية التي أتيا من أجلها خارجة عن سيطرته، وإنها في جملتها ملفقة، وتقع عليهما مسؤولية كشف هذا التلغيق. وأنه على ثقة من خلال معرفته لتجربتهما في المحاماة بأنهما يستطيعان معرفة من وراءها ولماذا؟ وأن يثبتا البراءة المتهم. شكر المحاميان النائب العام على إيضاحاته وطلباً منه أن يطلب من جهاز الأمن السماح لهما بزيارة موكلهما وفقاً للقانون بعد أن فرضت الإقامة الجبرية



على موكلهما من دون وجه حق، وأضاف أن الصحافة الأجنبية وبعض السفارات تتابع هذه القضية التي ستعود بالضرر وتجلب السمعة السيئة للدولة وللسلطة القضائية. قال النائب العام: سوف أخبر الأمن بأن من حقكما مقابلة موكلكما وهذا فقط ما أستطيع عمله في هذه القضية. اتصل النائب العام بأحد كبار ضباط المخابرات وأخبره أن من حق المحامين اللذين اخترتهما للدفاع عني أن يلتقيا بي. عندئذ سُمح للمحامين بلقائي في منزل عصام. شرحت لهما تفاصيل قصة الكرتون الشهير منذ خروجي من عدن حتى خروجي من الأمن بتهمة حيازة الأسلحة والمتفجرات داخل الكرتون نفسه. سأل أحد المحامين:

هل هو الكرتون نفسه أم أنه كرتون يشبهه؟ أجبت بأنه الكرتون نفسه الذي كُرمني به وبما فيه من أدوية الدكتور كارلوس رودريغيز، عضو البعثة الطبية الكويتية في عدن، وأني توليت علاج المواطنين في القرية حتى انتهت الأدوية فتركته فارغاً هناك، ومكتوب عليه من الجانبين عبارة "هدية من البعثة الطبية الكويتية" باللغتين العربية والإسبانية. قال أحد المحامين:

إذاً، هناك من أخذ الكرتون من منزلكم في القرية وعبث به ثم سلمه للأمن؟

طلبت من أختي وخالي أن يصلا إلى صنعاء، وقد يكون لديهما معلومات قد نجهلها.

وقبل أن يغادر المحاميان قلت لهما إن ما قيل في مجلسنا بحضورهما قد تم تسجيله، وجهاز الأمن يتهمني بالتطرف انطلاقاً من استشهاداتي بما قاله جبران خليل جبران.

سعدت لتفنيد كل هذه التهم الملققة وسنعود الرابعة عصرًا.

وصل الخال محسن ومعه الأخت غادة منزل عصام بعد ممانعة من رجال الأمن، لكن السائق أقنعهم بأن خالي العجوز وحفيدته قدما إلى المنزل لطلب العلاج عند الدكتور عصام. شرحت لغادة وخالي سبب قدمها والتهمة التي تريد أجهزة الأمن أن تلصقها بي، مؤكداً لهما أن الكرتون الفارغ الذي تركته في القرية هو الآن لدى جهاز الأمن مليئاً بالأسلحة والمتفجرات. نهض الخال محسن متكئاً على عصاه الشهيرة وعلق في غضب بحضور المحامين اللذين كانا قد قدما للقاء خالي وأختي:

فعلها عمار. أقسم أن أكسر هذه العصا على رأس هذا الوغد السارق الذي يعتقد أن بإمكانه أن يعمل كل شيء بثروة الفساد التي يملكها.

قال أحد المحامين:

نريد تفاصيل ما حدث بدون انفعالات. ولا تنسوا أن ما يقال هنا لا بد أن يقال أمام المحكمة يوم غد. علماً بأن المدعي العام أو أحد أعضاء المحكمة قد يوجه لكم أسئلة أخرى ويبحثوا عن تناقض في شهادتكم، ولا بد من قول الحقيقة كما هي، وتجنب الدخول في قضايا لا علاقة لها بالمحاكمة.

عندها اقترحت أن نستمع إلى أختي غادة لتشرح لنا حقيقة ما حدث. قالت إن أخي عمار قد وصل إلى القرية بعد مغادرتي بيوم ومعه حراسة كثيفة في قرية مسالمة لا يهدد سكانها أحد. وبعد دخوله إلى البيت جلس مع خالي وبدأ يسأل عما إذا كان صادق ينوي أن يقيم في القرية؟ وتابعت غادة: قلت له إنني لا أعتقد ذلك، وإن آلامه لا تزال قوية مما حدث في عدن. قال إنهم يحتفلون بصداق في صنعاء كما لو كان من كبار الزعماء وصاحب جاه ونفوذ. فأجابه خالي بالقول أن صادق رجل محبوب عند الجميع إذ قدم خدمات جليلة لأهل القرية الفقيرة ولمختلف سكان المنطقة. ولهذا يحبونه وأعتقد أن أصدقائه في صنعاء يقدرون موافقه، وهو فخرٌ لنا جميعاً. سأل عمار عما إذا كنت أفكر بأن أشرح نفسي لعضوية البرلمان في الانتخابات القادمة؟ أجابه خالي، بأن صادق أهلٌ لذلك، وإذا ترشح فإن فوزه مضمون، أيًا كان المرشح المنافس. عندها ثار عمار ولم يعد قادراً على ضبط انفعالاته. وأضافت غادة أنها عند ذلك حاولت أن تهدي من خوف عمار، وأكدت له أنني لن أترشح لأي منصب، بل لن أبقى في القرية ولا في صنعاء، وأن ذهابي إلى العاصمة هو بهدف زيارة زملائي وأصدقائي. وقالت إنها تضمن أنني لن أترشح لأي منصب، لأنني طبيب ناجح ولا أريد أن أعمل بغير مهنتي. وأكدت أنها لاحظت أن عمار شك في كلامها لأول مرة، وفي أسباب وجودي في الشمال. عندها قالت له:

إذاً، أنت لم تأت هذه المرة لزيارتنا وإنما لمعرفة إذا كان أخوك ينوي الترشح للبرلمان؟ وعندها همّ عمار بالمغادرة لكنه لاحظ وجود الكرتون الذي تركته فارغاً من الأدوية فسألنا: لمن هذا الكرتون؟

فأجابت غادة قائلة إنه فارغ بعد أن كان فيه أدوية أحضرها صادق وعالج به الناس. عند ذلك قال إنه يحتاج إلى ذلك الكرتون. وأمر أحد المرافقين بأن يحمله وغادروا جميعاً نحو صنعاء، بعد أن أفزعوا القرية من جديد بجلبتهم، وأقلقوا راحة البشر والحيوان في هذه القرية

الوادعة. عندها قال أحد المحامين:

نريد منك أن تشرحي عندما تستدعيك المحكمة ما قلت لنا الآن، وأن تكوني هادئة الأعصاب. أما أنت يا خالنا فلن نطلب تدخلك إلا عند الضرورة لأنك تنفعل وستستخدم المحكمة الخاصة انفعالك للتشكيك وللتهرب من الاعتداد بشهادتك، علماً بأننا لن نظهركما كشاهدين إلا في مرحلة معينة على ألا تحضرا إلا عندما نطلبكما.

وحيث عقدت المحكمة أولى جلساتها للنظر في قضيتي اتخذ القضاة الثلاثة الذين هم أصلاً من ضباط الأمن مثل المدعي العام في هذه القضية قراراً بأن تكون المحاكمة مغلقة. طعن المحاميان في قرار كهذا، وبخاصة بعد أن أصبحت هذه القضية في متناول الصحافة ووكالات الأنباء الأجنبية وهيئات الدفاع عن حقوق الإنسان إضافة إلى أن عدداً من السفارات الأجنبية كانت تتابعها. وتساءل أحد المحامين عن سبب جعل المحاكمة مغلقة ما دامت أجهزة الأمن كما علمنا تؤكد أنها تملك أدلة. رفعت المحكمة الجلسة لمدة ربع ساعة للتداول حول قرار أن تكون المحاكمة مغلقة أو مفتوحة، ويبدو أن أحدهم طلب الاستئناس برأي النائب العام الذي نصح بأن تكون علنية لأن أكثر من طرف يتابعها. عادت هيئة المحكمة وأعلنت علنية المحاكمة، فدخل الصالة عدد من الناشطين والناشطات اجتماعياً وسياسياً، ولوحظ وجود القائم بأعمال سفارة كوبا مع محاميه اليميني، وعدد من نساء السلك الدبلوماسي الأجنبي. بدأت وقائع المحاكمة وطلب رئيس المحكمة من المدعي العام أن يتلو وقائع الإتهام.

فعرض وثيقة الإتهام ومما جاء فيها "كنا نتوقع بعد أحداث ١٣ يناير الدامية التي راح ضحيتها أعداد كثيرة من إخواننا في الجنوب، أن تكون آخر مراحل العنف والمؤامرات والألغام والمتفجرات التي راح ضحيتها العشرات من أبناء الشمال وبخاصة من المناطق الوسطى. ولكن يبدو أن هذا النظام مستمر في تصدير الأسلحة وخلق الفتنة. وأستطيع أن أقول جازماً إن هذه الممارسات أصبحت جزءاً من هذا النظام أيًا كان الفريق المنتصر أو المهزوم في عدن، فالخطر قائم على أمتنا وشعبنا ونظامنا".

اعترض أحد المحامين على ما قاله المدعي العام قائلاً "إن مداخلة المدعي العام إتهام سياسي لنظام لم تعقد هذه المحكمة لمحاكمته، بل لا تملك أية صلاحية لإجراء المحاكمة. ونحن هنا غير معنيين وغير مكلفين بالحديث عن

النظام الذي أراد المدعي العام إقحامه في هذه القضية، وقد كلف نفسه بمهمة لم يكلفه بها أحد، فأرجو من رئيس المحكمة أن يطلب من المدعي العام أن يحدد ماذا يريد اليوم ومن يتهم". لكن رئيس المحكمة وقف مع النائب العام وخاطبه بالقول "إن القضايا مترابطة ولكن لا بأس، نحصر دور هذه المحكمة في القضية التي كلفت بالنظر فيها، وأرجو من المدعي العام أن لا يتشعب في قضايا تخرج عن اختصاصنا".

واصل المدعي العام القول: "تمكنت أجهزة الأمن الساهرة على حماية أمن الوطن والمواطن من العثور على كمية كبيرة من المتفجرات في كرتون وصل من عدن وعليه عبارة "هدية من البعثة الطبية الكويتية" مكتوبة بالعربية والإسبانية، يحمله هذا اليساري المتطرف".

وتقدّم أحد محامي الدفاع من منصة المحكمة موضحاً أن الجلسة الصباحية قد تطرقت إلى قضايا لا علاقة لها بوقائع الاتهام إن كان هناك اتهام. فالمدعي العام تارة يتحدث عن نظام الجنوب وأخرى عن كوبا. وهذه تهمة لا المحكمة ولا هيئة الدفاع ولا المدعي العام مخلولون بها. وطلب من رئيس المحكمة أن يطلب من المدعي العام أن يسرد قائمة الاتهام إن كانت لديه، وأن يحدد بشكل واضح من المتهم وما هي التهم المنسوبة إليه؟ طلب رئيس المحكمة من المدعي العام أن يدخل في صلب الموضوع حرصاً على وقت المحكمة وعلى سلامة إجراءاتها. قال المدعي العام بدون مقدمة إن أجهزة الأمن ضبطت كمية كبيرة من الأسلحة والمتفجرات جلبها المتهم من عدن. وأضاف أن المتهم اعترف بأنه صاحب الكرتون المليء بالأسلحة والمتفجرات، إضافة إلى اعترافه أنه متطرف ويساري، وحرّض الغوغاء في مجلس المهندس طه على التطرف. وبإمكانكم أن تستمعوا إلى الشريط الذي حصلت عليه أجهزة الأمن. وطالب بإنزال أقصى درجات العقوبة على المتهم مضيفاً أنه لولا سهر رجال الأمن لنتج من جريمته الكثير من القتلى والجرحى في كل مدينة وقرية.

أوضح أحد محامي الدفاع أن في ما قاله المدعي العام تجنياً على الحقيقة، ومخالفة قانونية تتمثل أولاً في عدم السماح لأي محام بأن يحضر وقائع التحقيق الذي أجرته أجهزة الأمن ليلاً بعد أن اختطفت الدكتور صادق وزوجته وزوجة زميله. أما مسألة الشريط المسجل الذي يقول المدعي العام إنه يدعو إلى التطرف فقد تم التسجيل بصورة غير قانونية في

مجلس كان فيه أكثر من أربعين شخصاً، ونحن منهم، من بينهم عدد من القضاة والمثقفين. واقتصر الحديث على ذكريات الدراسة. أما قضية التطرف التي أشار إليها المدعي فهي استشهاد المتهم بكتاب المفكر والمبدع والشاعر جبران خليل جبران، الذي لم يتحدث عن التطرف كما يفهمه المدعي العام، كما تحدثنا في هذا المقيل الذي حضره عدد من المثقفين والأصدقاء عن الاعتدال، ومن ذلك ما قال أحد الشعراء عن تناول الشاعر الكبير البردوني للتطرف. ويمكن إذا سمحت المحكمة أن نقرأ من كتاب جبران أو أقوال البردوني لتعرفوا أن هذه التهمة غير صحيحة وأنها باطلة. أما التنصت على المواطنين وتسجيل محادثتهم فهي جريمة أتركها بيد الأخ رئيس المحكمة الذي أدعوه أيضاً لأن يسمعنا مقاطع من التحقيق الذي أجراه جهاز الأمن مع موكلنا حول الكرتون وما بداخله. قرأ أحد العاملين في المحكمة مقطعاً من التحقيق يعترف فيه المتهم بأنه صاحب الكرتون الذي كان مليئاً بالأدوية، وأنه لا يعرف شيئاً عن الأسلحة والمتفجرات التي وضعت بداخله، وأن الجهة الوحيدة التي تعرف ذلك هي الجهات الأمنية. وأضاف أن المتهم أكد على ذلك من جديد عند توقيعه لمحضر التحقيق. وخاطب المحامي هيئة المحكمة قائلاً "لا يوجد أي اعتراف". وطلب من الأمن ومن المدعي العام أن يكشفوا للمحكمة كيف وصل كرتون ترك فارغاً في قرية نائية إلى مقر الأمن مليئاً بأسلحة ومتفجرات؟ لكن رئيس المحكمة رفض هذا الطلب قائلاً إن الأمن لا يكشف مصادر معلوماته أيضاً كانت القضية. قال المحامي: أتفهم هذه الحجة ولكنني في هذه الحالة أطلب حضور أخي المتهم الأستاذ ورجل الأعمال الكبير والناجح عمار بن محمد المنصوري. أنا أعرف أنه يتمتع بالحصانة البرلمانية التي لا أطلب برفعها، وإنما أطلب فقط حضوره كشاهد، باعتبار أنه خير من يعرف أخاه. لكن رئيس المحكمة علّق على ذلك بالقول إن من الصعب أن نطلب من رجل مهم مثل عمار المنصوري أن يحضر محاكمة لا علاقة له فيها.

قال المحامي:

القضية تتعلق بأخيه، وشهادته قد تعيننا وتعين المحكمة في معرفة نواذعه وممارساته. فمعرفة جميعاً مقتصرة على أن د. صادق من أنجح الأطباء ومن أصحاب المواقف السياسية الشجاعة والمسؤولة. تحدث أعضاء المحكمة فيما بينهم وقرروا

رفع الجلسة وحددوا موعداً آخر، طلبوا من أخي عمار، "إذا كان وقته يسمح بحضور المحكمة لبضع دقائق فقط للإدلاء بما يعرفه عن أخيه". شكّل هذا القرار نصراً جديداً لهيئة الدفاع التي تسير وقائع المحكمة وفقاً للخطة التي رسمتها. وحين عادت المحكمة للانعقاد بحضور عمار، تقدم إليه رئيس المحكمة بالشكر والعرفان "لحضوره رغم مشاغله ومسؤولياته الوطنية الكثيرة" كما قال. وتعمّد محامي الدفاع عدم استفزازه فأشاد بما قاله رئيس المحكمة عنه، ثم طرح عليه السؤال التالي:

أستاذ عمار، أنت خير من يعرف أخاك صادق، فهل لك أن تتكرم بإعطائنا بعض المعلومات التي قد تعيننا في القضية التي ننظر فيها المحكمة اليوم.

قال عمار بكبرياء ملحوظة:

لقد اختطّ أخي صادق خطأً متطرفاً منذ صغره، والتحق بنظام الكفر والإلحاد في عدن منذ وقت مبكر. والجميع يعرف أنه يتسم بالتطرف والمغالاة في مواقفه السياسية والحزبية ومن ثمّ يمكن أن يُقدّم على عمل أي شيء، خاصة بعد الدمار الذي حلّ بالجنوب والذي سمعت أنه قد قام بدور في ذلك الدمار باعتباره أحد قادة النظام الذي نعاني جميعاً من ويلات.

هزّ المدعي العام رأسه تعبيراً عن موافقته على كل كلمة قالها عمار ضدي وطلب الدفاع الكلمة ووجّه إلى السؤال التالي:

أستاذ عمار، كان أخوك صادق مؤخرًا في قرينكم. وقد مكث فيها عشرة أيام، هل التقيت به هناك؟

لا لم ألتقي به. والواقع أنني نظراً لمشاغلي الكثيرة وأعمالي التي توسعت، لم أزر القرية منذ حوالي سنتين.

هل تقول إنك لم تزر قرية قرن منصور منذ حوالي سنتين؟

نعم.

وما هي علاقتك بأختك غادة وخالك

محسن؟

إنها علاقة حب وتقدير وثقة. وغادة وأنا نعتبر خالنا محسن بمثابة من يقوم مقام الوالد رحمة الله عليه.

ومع ذلك لم تزرهما منذ أكثر من سنتين؟ للأسف، لم أتمكن من زيارتهما ولكن إن شاء الله أزرهما قريباً.

شكره المحامي ثم تقدم من رئيس المحكمة طالباً السماح لهيئة الدفاع باستدعاء شاهدين للمثول أمام المحكمة. سأل رئيس المحكمة

المدعي العام إن كان لديه اعتراض، فأكد عدم اعتراضه. وفجأة دخل عصام ترافقه غادة وخالها محسن. عند ذلك أطلت غادة بجمالها الباهر وفتت إليها من في المحاكمة من الحضور، بمن فيهم هيئة المحكمة. تقدمت بهدوء ووقار مع خالها إلى المكان المخصص للشهود. كانت ترتدي ثوباً طويلاً يتسم بالحشمة والأناقة ووضعت على رأسها طرحة خفيفة وردية اللون ولمسات تجميل خفيفة كما لو كانت خارجة من أكبر مصفف شعر رائد في أعمال الأناقة والمكياج، مع أنها في الواقع لا تعرف أيّاً من محلات التجميل. كانت تتمتع بجمال طبيعي جذاب وبشخصية تحظى باحترام الجميع وتقديرهم. ألقى غادة التحية على الجميع أما الخال محسن فكان عابس الوجه وبخاصة بعد أن شاهد عمار يجلس في مقدمة الحضور. دعا رئيس المحكمة غادة لكي تتقدم لتأدية القسم وطلب منها أن تذكر اسمها وعمّا إذا كانت أختنا الشقيقة فأجابته بنعم. ثم قال لها:

اشرحي لنا ماذا تعرفين عن القضية التي ننظر فيها المحكمة وعن التهمة الموجهة إلى أخيك صادق.

قالت:

أطلب منكم أن تعذروني مسبقاً إن أطلت في حديثي، والهدف من ذلك وضع القضية في إطارها التاريخي الذي أعتقد أنه قد يسهّل مداولتكم لتصلوا إلى الحقيقة. الأخ الرئيس، أنا وخالي وإخواني ننتمي إلى أسرة متواضعة كغيرها من معظم أسر اليمن. كانت والدتي تملك بعض حقول الفواكه والعنب، ولكنها كما يعرف الجميع، تحولت شيئاً فشيئاً إلى مزارع للقات. وفقدت والدتي رحمة الله عليها حين كنت في أمس الحاجة إلى حنانها وعطفها. (وهنا بدأت بعض النسوة في الصفوف الخلفية من قاعة المحكمة يمسحن دموعهن تأثراً بما قالته غادة).

لكن والدنا رحمه الله، ذلك الرجل الذي قضى حياته في المهجر، ترك لنا ثروة لا تقدر بثمن، إنها ثروة العلم. فقد عانى في حياته الكثير من الصعاب من أجل أن يوفر العلم لأبنائه. وكان يعتقد أن لا ثروة تملو فوق ثروة العلم والمعرفة. عندها صفق من في الصفوف الخلفية لما قالته غادة. واصلت حديثها ومن في المحكمة في خشوع تام، ولم يعد انتباههم مشدوداً إلى جمالها وأناقته، بل إلى قوة طرحها واتزان حديثها).

– ما خلفه لنا المرحوم والدنا مائل اليوم أمامنا. لقد تمكّن أخي صادق من مواصلة

دراسته في أعرق الجامعات الأوروبية، وهو الآن طبيب وجراح ذو سمعة وطنية ودولية معروفة. وأرسل والدي أخي عمار للدراسة في إحدى جامعات البلدان العربية، وهو الآن يملك ثروة كبيرة لكنني أراها أقل قيمة من ثروة العلم. ومكنني والدي من الدراسة حتى أنهيت المرحلة الثانوية، وأنا اليوم المرأة الوحيدة في قرية قرن منصور التي منحها الله بفضل جهود والدها هذه النعمة التي تفخر بها وتعزّز.

(دوى التصفيق من جديد فطلب رئيس المحكمة من الجميع الهدوء ومن غادة أن تتحدث مباشرة عن القضية التي ننظر فيها المحكمة).

قالت:

كان أخواي عمار وصادق مختلفين في كل شيء حتى في الثياب التي يرتديانها، وبينما توجه عمار نحو الدراسات الأدبية والاقتصادية اختار صادق المجال العلمي، فأصبح طبيباً مشهوراً. أما اختلافهما فتواصل ماضياً وحاضراً. وقد حاولت مراراً أن أخفّف من حدة الخلاف بينهما دون جدوى.

تدخل أحد محامي الدفاع موجهاً سؤاله إلى غادة:

هل لك أن توضحني للمحكمة متى كانت آخر

مرة زاركم فيها أخوك عمار إلى القرية؟

آخر مرة زارنا عمار قبل أيام بعد أن غادر صادق القرية إلى صنعاء. فقد وصل عمار لزيارتنا، ووصل معه كالعادة كثير من العساكر الذين يفزعون البشر والحيوان دون مبرر من ضجيج العساكر المرافقين وضجيج السيارات. حتى أن حليب البقر يجف من ضجة العساكر وجلبتهم ومن صخب السيارات. وقد أخبرت عمار بذلك مراراً، خاصة ونحن في قرية مسالمة لا تحتاج إلى حراسة ولا إلى مراقبة (ضحك الجميع بمن فيهم رئيس المحكمة من ذكر الطبيب والبقرة وعلقت غادة على ضحكهم من ذكر الطبيب والبقرة في المحكمة بأن من حقهم أن يضحكوا لكن الناس في القرى يكونون إذا جفت ضروع البقر لأن حليبها مصدر حياة للصغار والكبار، الرجال والنساء. صفق الحضور من جديد لغادة فصرخ رئيس المحكمة طالباً الهدوء. ثم خاطب غادة):

قلت إن آخر زيارة لأخيك عمار للقرية كانت

قبل أيام، هل تؤكد ذلك؟

نعم. وقد لاحظت مع خالي أن عمار هذه المرة كان قلقاً وكانت أسئلته منصبّة حول صادق، عما إذا كان ينوي الإقامة في القرية؟ وهل ينوي الترشح للبرلمان؟ وقد أكدت له أن صادق

في المنفى

نجيب محفوظ

وصلنا إلى بودابست ونزلنا عند أسرة أرينا في إحدى ضواحي المدينة. التحقت أرينا بأكاديمية الفنون الجميلة لتدريس نظريات الفن. أما أنا فكان عليّ أن أحضر مسابقة للتدريس في كلية الطب. وبعد ثلاثة أشهر تمكنت من تجاوز الامتحان بنجاح وأنا أدرّس وأمارس مهنة الطب في المستشفى الجامعي. ورزقنا بعد تسعة أشهر بأول طفل سميناه "سام".

ومن الطريف أن الخال محسن خاض الانتخابات البرلمانية في المنطقة لكي يفني بعهدده ويحرم عمار من التمتع بنتائج مؤامرتة. وكان شعار حملت خالي "انتخبوا الحاج محسن خال الدكتور صادق"، ولم يضع حملته شعار السلطة ولا غيره. كان يرفع عصاه الشهيرة ويتحدث مع الناس حديثاً يفهمونه ببساطة ودون استعراض عضلات. ولم تأخذه السلطة مأخذ الجد ولم تبدل ما بذلت من جهود في مناطق أخرى لتزوير الانتخابات لصالحها، وفوجئ الجميع بفوزه بسهولة بالغة لم يكن أحد يتوقعها، خاصة وهو ينافس مرشح السلطة التي دعمته بكل شيء. لكن عمار حين رأى أن خاله سيكتسح أقتنع السلطة أن تنقف ترشيحه بعد مضي موعد الترشيح الرسمي إلى منطقة يوحد فيها ثلاث وحدات من الجيش ووحدة من قوات الأمن وأخرجوا أي منافس آخر حتى لو كان من السلطة بالإقناع والترهيب ولم يبق إلا هو مرشحاً وحيداً. ويقال إنه لا يخاف أحداً في البرلمان إلا عصا خاله الذي أقسم أن لا تكسر إلا على رأس عمار.

ووفت أرينا بتعهداتها لغادة ورتبت مجيئها حتى التحقت بنا في بودابست، وهي الآن تدرس الإنجليزية والمجرية تمهيداً لدراساتها في التخصص الذي ترغب فيه.

غير أن غادة تردّ كل صباح ومساءً:

"سألت الشيخ عبد ربه التائه:

- متى يصلح حال البلد؟

فأجاب:

- عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجين أوخم

من عاقبة السلامة".

المادة الثانية التي تنصّ على أن "لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية، لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون"، والمادة التاسعة التي تنصّ على أنه "لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً"، والمادة الخامسة عشر التي تقول "إن لكل فرد حق التمتع بجنسية ما، وإنه لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفاً أو إنكار حقه في تغييرها". وأكد على ما قال زميله عن التقدم بطلب النقض أمام المحكمة العليا ودعوة البرلمان إلى رفع الحصانة البرلمانية عن الشخص الذي دبر هذا العمل المشين لأغراض شخصية ومصالح اقتصادية تخصه مع مجموعة من المتنفذين الذين يحمونه أياً كانت الجرائم المنسوبة إليه.

وفجأة رفع الخال محسن عصاه وأراد أن يضرب بها عمار على ما فعل بأخيه. غير أن حراس عمار أبعدها الرجل العجوز. وهنا أقسم الخال العجوز أمام الجميع بقوله إن قرية قرن منصور محرمة على عمار منذ اليوم، وأن عمار لن يكون نائباً عن المنطقة إلا على جثته. هدأت غادة من ثورة خالها وراقبت عصاه الشهيرة لكي لا يحركها يميناً أو يساراً.

لكن المفاجأة أن رئيس المحكمة أعلن أن الحكم نهائي وغير قابل للطعن، نظراً لارتباطه بأمن الدولة وسلامة أبنائها، وأنه لا بد من تنفيذ حكم النفي بالسرعة القصوى وخلال ٤٨ ساعة.

عند ذلك رفعت صوتي دون استئذان لأقول: لقد قال عضوا هيئة الدفاع ما لا قدرة لي على قوله، وبخاصة لأنني طبيب لا رجل قانون. وقد لاحظ الجميع أن المحامين دافعا عني بصدق وقناعة، وقاما بهذه المهمة تطوعاً بدون مقابل لمعرفة أنني لا أملك ثروة من فساد مثل البعض، ولقناعتهم بأن الصداقة والزمالة والمواقف المشتركة التي عشناها منذ سنوات الشباب تمثل أكبر ثروة. إنها بمثابة الشجرة التي تضرب جذورها في أعماق الأرض وتمتد غصونها إلى أعالي السماء. إنها الحرية التي لا يمكن لأي كان أن ينتزعها أو يقلل من شأنها.

رفعت المحكمة جلستها النهائية، فتسابق عدد من الحضور لمعانقتي وتقديم التهاني الحارة للمحامين اللذين توليات الدفاع عني على براعتهم. أما أختي غادة فخرجت والجميع يصفق لها إعجاباً. ولم ينقذ عمار من غضب الكثيرين إلا حراسه المدججون بالسلاح.

سأل عمار: وما هو الحل؟

أن ننص في منطوق الحكم على أنه لم يثبت لدينا بالدليل القاطع أن الأسلحة والمتفجرات تعود للمتهم، وأن من حق أجهزة الأمن أن تحمي مصدر معلوماتها. وبهذا نكون قد ضربنا عصفورين بحجر. أولاً، نكون قد أرضينا هؤلاء المحامين العتاة بأن موكلهم بريء من تهمة حيازة الأسلحة والمتفجرات، وثانياً نرضي رجال الأمن ونرضيك يا أخ عمار بأن يتم نفي أخيك إلى خارج اليمن في أسرع وقت ممكن لأسباب أمنية طارئة.

هز الجميع رؤوسهم بالموافقة وعادت هيئة المحكمة لتعلن منطوق حكمها:

"بعد المداولة قررت المحكمة بالإجماع ما يلي:

- تبرئة الدكتور صادق بن محمد المنصوري من تهمة حيازة المتفجرات والأسلحة إذ لم يثبت بالدليل القاطع حيازته للأسلحة والمتفجرات التي اتهم بحيازتها.

- من حق أجهزة الأمن التي تعرف أكثر مما نعرف حول هذه المسألة أن تحتفظ بمصادر معلوماتها وكيف عثرت على هذه الأسلحة وأين.

- نظراً لخطورة الوضع على أمن البلاد، وبعد أن اطلعنا على جميع المبررات التي قدمها المدعي العام وأجهزة الأمن، ولكون المتهم مشهوراً بتطرفه وتنظيره للتطرف، قررت المحكمة بالإجماع أن يتم نفي المتهم إلى البلد الذي يختاره.

- يتم تنفيذ إجراءات النفي خلال ٤٨ ساعة من بداية سريان هذا الحكم.

احتج الحضور على الحكم ولا سيما بنداه الثالث والرابع.

طلب أحد محاميي الدفاع حق الكلمة وقال: مع احترامي لهيئة المحكمة أعلن أن هذا الحكم بجميع فقراته وخاصة الثالثة والرابعة لا تستند إلى أي أسس شرعية أو قانونية. ولذلك أعلن عن حقنا في الطعن بهذا الحكم أمام المحكمة العليا. وسأتقدم رسمياً بطلب رفع الحصانة البرلمانية عن المدعو عمار بن محمد المنصوري الذي تؤكد المعطيات أنه العقل المدبر لافتعال هذه القضية نكاية بأخيه وخوفاً من أن يترشح للبرلمان فينتزع منه المقعد والحصانة التي يستخدمها لأغراض تتصل بالفساد.

وأعلن محامي الدفاع الآخر احتجاجه على منطوق الحكم وسرد عدداً من مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الملزم لسائر الدول مثل

لا يفكر في ذلك. لكن خالي بطبيعته المعهودة عقب على تساؤل عمار بقوله إن صادق إذا ما رشّح نفسه لأي منصب فإن الكبير والصغير معه، إن شعبيته ليست محصورة بالقرية بل تنتشر في كل قرى المنطقة. الجميع هنا يحبه ويحترمه ولا يتحدثون إلا عن هذا الطبيب الذي يعالج الناس مجاناً. وعند ذلك ثار عمار وخرج عن هدوئه، وبدأ السير ذهاباً وإياباً في الديوان. وعندما شاهد الكرتون الذي تركه صادق فارغاً بعد أن فرغ من الأدوية، سأل لمن هذا الكرتون. قلنا إن صادق جلب فيه أدوية من عدن عالج بها مرضى القرية والقرى المجاورة. أما الآن فهو فارغ، قد يضع فيه خالي بعض ثيابه. فقال عمار إنه يحتاج هذا الكرتون وأخذه وسلّمه لأحد عساكره الذي وضعه في السيارة عندما انطلقوا عائدين إلى صنعاء.

وجّه القاضي السؤال إلى الخال محسن عما إذا كان يؤكد ما قالته غادة. قال الخال:

نعم أوافق على كل كلمة قالتها.

ضجّت القاعة في حين أسرع المدعي العام بالقول إنه لم يعلم بوجود الشاهدين. لكن القاضي قاطعه قائلاً:

لقد سألتك في البداية إذا كان لديك اعتراض على الشهود فأكدت عدم اعتراضك، ولا مجال للطعن بعد أن أكملنا شهادتهما.

أعلن رئيس المحكمة رفع الجلسة للتداول في منطوق الحكم، ومن غرابة الأمور أن هيئة المحكمة والمدعي العام طلبوا من عمار أن يشاركهم المداولة في الحكم دون أي سند قانوني أو شرعي.

وأثناء المداولة قال رئيس المحكمة إن هذه القضية قد أصبحت معقدة خاصة بعد أن دخلت عليها وسائل الإعلام الأجنبية وتتابعها بعض البعثات الدبلوماسية، غير أننا لا بد أن نخرج بقرار سريع وحاسم.

قال عمار:

أنا أقترح أن يُدان وينفى من البلد.

أجاب رئيس المحكمة بأنه لا توجد حجج قانونية ولا شرعية تسمح بتجريبي، أما نفي إلى الخارج فيمكن تبريره بأسباب تملكها أجهزة الأمن، خاصة وأنا أحمل جوازاً جنوبياً. ثم واصل رئيس المحكمة القول:

المشكلة أكبر من مسألة النفي. لقد اختار أخوك صادق اثنين من أهم المحامين، وأنا على قناعة أنهما قد يطعنا في الحكم إذا لم يبرأ من قضية الأسلحة والمتفجرات التي هي القضية الأكبر والأخطر.

وهذا ما يحصل له حيث يرحل مع زوجته المجرية الأصل "أرينا" ويظل "عمار" أخوه المزور والفاقد والذي لم يتورع عن اتهام أخيه بأشنع وأخطر التهم التي يمكن أن تودي بحياته، يعيش ويعمل في أحضان السلطة في صنعاء.

اختار أحمد الصياد المزاجية بين السياسي والأدبي من خلال استعمال بعض الرموز والنصوص الأدبية وخاصة الشعرية التي ترتبط بتاريخ اليمن مثل رامبو وسواها من المختارات الشعرية التي وجد الكاتب فيها ضالته، والتي نقلها عن أدباء وكتاب أحبهم مثل جبران خليل جبران وليوبولد سنجور وعمر أبو ريشة ونجيب محفوظ دون أن ينسى اليمنيين مثل عبدالعزیز المقالح والبردوني. ولكن العلاقة بين السياسي والأدبي هي في صلب الأسلوب الذي اختاره المؤلف حيث أن المادة المأساوية والتي تشكل ذروة التراجيديا في النص هي سياسية بحتة وأحداثها معروفة إلا فيما يتعلق ببعض التفاصيل، ولكنه من خلال اختياره لأسلوب "الروي" والتماهي مع العمل الروائي بالإضافة

إلى الاستشهادات الشعرية والمقولات قد حاول تلوين موضوعه السياسي وإضفاء طابع "مشوق" عليها وكذلك للخروج بها إلى دلالات وأفانج خارج حدود اليمن.

إن أهم صور التماهي الأدبي/ السياسي في هذا الكتاب هو مشهد عودة آرثر رامبو إلى عدن عشية انفجار حرب ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ليصعد على تلة في كريتر، حيث عاش قبل أكثر من مائة عام على تاريخ تلك الأحداث ١٨٨٠

ليقول لليمنيين المتحاربين:

"يا أهل عدن، يا جميع هؤلاء السكان الذين احتضنتهم هذه المدينة كأم تحضن أطفالها. إنني أشم رائحة البارود عجباً! الجو مغمم برائحة قتال... لقد قلت لكم ذات يوم إن اليد التي تمسك بالمحراث بمنزلة اليد التي تمسك بالقلم... أما اليوم فأقول لكم جهراً إن يداً تدمر لا يمكن أن تكون بمنزلة يد تعمّر وإن الطلقة تقضي على الكلمة (...). يا أهل عدن، حافظوا على هذه المدينة التي احتضنت المسلم والمسيحي والهندي واليهودي والبوذي ومن لا دين له، وقد أعذر من أنذر". قبل أن يعود رامبو على "مركبه السكران"

ترافقه غريبان عدن إلى أعالي البحار...

بالطبع لهذا المشهد موقع محوري في النص لأنه منح الكتاب عنوانه "فصول من جحيم اليمن" وفي ذلك استذكار أيضاً لديوان رامبو الذي يتنبأ فيه بالرحيل إلى مناطق حارة وصراعات ودماء والذي عنوانه "فصل في الجحيم". وكانت صدقت رؤية رامبو الشعرية في رحلته إلى عدن.

إن أسلوب أحمد الصياد في كتابة التاريخ المعاصر اليمني بهذه اللغة يمنحه موقعاً خارج الأحداث، تلة تشبه التلة التي وقف عليها رامبو في عدن في حين أنه كسياسي ودبلوماسي يمني عاش ولا زال يواصل علاقته المباشرة والفاعلة مع الواقع السياسي اليمني حيث تربطه علاقات صداقة ومودة مع الكثير من أبطال هذا المسرح. إنها بالنسبة له الخشبة "البريشية" التي يصعد فوقها البطل ليخرج من الحدث إلى التعليق عليه، خاصة وأن شخصية "صادق" تتقاطع في مواقع عدة مع شخصية الكاتب ولو أنه يسعى أيضاً لكسر هذا التماثل وتجريد "صادق" من كل دلالة أتوبيوغرافية.

إن تجربة أحمد الصياد السياسية الدبلوماسية وهي تنعكس في مرايا الأدب والتاريخ اليمني المعاصر تقدم نموذجاً حياً نقدياً جريئاً لحاضر اليمن.

هوامش

- ١- شوقي عبدالأمير، الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠ ص. ٢٩٤
- ٢- سورة الحجرات آية ٩
- ٣- سورة النساء آية ٩٣
- ٤- سورة البقرة آية ٢٨
- ٥- عبد العزيز المقالح، مقطع من مجموعة بلقيس وقصائد لمياه الأحزان.
- ٦- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، دار الجيل، بيروت ص. ٨٣، ٨٤، ٨٥
- ٧- جبران خليل جبران، نفس المرجع ص. ٣٢
- ٨- عن عبدالله بن المقفع مخاطباً عبدالله بن علي.



